
فَضِيلَةُ العَلَّامَةُ الإِنْسَانِي الكَبِيْر
محمد أمين شيخو
(قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ)
أسرارُ السبع المثاني
وحقائقها
جَمَعَهُ وَحَقَّقَهُ فَضِيلَةُ المُرَبِّي الأُسْتَاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

فضيلة العلامة الإنساني الجليل

محمد أمين شيخو

قدَّس الله سرّه

١٨٩٠-١٩٦٤

أسرارُ السبعِ المثاني وحقائقُها

جمعه وحقّقه المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

§§§§

موقعنا على شبكة الإنترنت:

www.amin-sheikho.com

info@amin-sheikho.com



محتويات الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ارتاد إنسان القرن العشرين الفضاء، وجاز بمركباته إلى الكواكب إبحاراً بتكاليف باهظة، متنافساً مع أقرانه، متسابقاً نحو التقدم والتكنولوجيا الأرقى والأقوى والأدوم، ولكن للأسف ما بلغ وأقرانه، معشار ما بلغت الجِنّة ذات الخلْقة المهيَّأة للطيران واجتياز الحدود الأرضية بالإرادة، ولم تكن صناعة الإنسان لتفوق خلْق الله مهما كانت، ولن تكون، صنَعَ الطائرات وجاب الفضاء الأرضي ذهاباً وإياباً، وهو رهين جسمه، معرَّض لكافة المخاطر، فما بلغ متعة طير بطيرانه وتنقُّله.

ركب البحار، وغاص في أعماقها جيئة وذهاباً لاكتشاف مكنوناتها، وظل عاجزاً عن كشف عوالم ما تحت الظلام المدلهم المخيف. وكلما تقدم وجد هناك خلقاً من لحم وعظم من الأسماك، يفوق صناعاته الفولاذية التكنولوجية عمقاً وانسجاماً ومقاومةً لضغوط أعمدة المياه الثقيلة، وتآلفاً مع ضغوط لا يتصورها عقل.

قليل من الهواء اللطيف، يأتي مُجتمعاً مسرعاً كإعصار، لا يبقي ولا يذر شيئاً من حضارته، وكذلك الماء سر الحياة، إن طاف أو سال أو هاج، ليس يوقفه إلّا خالقه.

أفإلى هذا خُلقت أيها الإنسان المكرم عند الله، للصراع مع الطبيعة، وهي الطيِّعة المسخرة لك ولرزقك وطعامك وشرابك وللتنافس مع المخلوقات التي خلقت لخدمتك!...

تقدمت بك الحضارة، فتعددت الطبقات للبناء في كل الأرض، وعُبّدت الطرقات، وانتشرت السيارات، ولبس الناس عموماً لوناً واحداً من اللباس (قميص وبنطلون).. فلم يعد للسفر والترحال أي متعة بجديد.

فأي البلاد جبت، وأي الأماكن زرت، ستشاهد نفس المنظر والمشهد من بناء ولباس. شيء مملّ، فلا تنوع ولا جديد، فكانت الحضارة كالتي نقضت غزلها من

بعد قوة أنكاثاً، إذ التقدم والرقي بالدنيا قَتَلَ البيئة والدنيا، وأمات بهجتها. وما الدنيا إلّا منتهى بصر أعمى القلب، أعمى البصيرة، لا يُبصر مما وراءها شيئاً، والبصير المؤمن ينفُذُ منها ببصيرته للدار الآخرة، بيقينه بالموت الذي لا بدَّ منه، ويعلم أن الدار والحياة الباقية وراءها. فيعلم بإيمانه الذاتي، إذ يؤمن كإيمان سيدنا إبراهيم ﵇، النموذج الإنساني الكامل للسمو يعلم لِمَ خُلق؟. ولِمَ جاء إلى الدنيا؟. وما المهمة الملقاة على عاتقه؟. فأوفى بعهده مع ربِه، وكان من السعداء في سياحته القلبية ورحلته العظمى مع الحبيب الأعظم ﷺ ، بالصلاة في حضرة الإلّه العظيم، بعيداً عن المادّيات والسجن الجسمي، ففاق العوالم بأسرها سعادة وحبوراً، ومعرفة وعلماً، وحُبّاً للإله وعطاءً منه ورِضْواناً، لم تكن التكاليف الباهظة، ولا المشاق العسرة والمغامرات الخطرة، هي السبيل لبلوغ ذلك السّمو:

إنما كثير من الصدق، وقليل من التفكير في آيات صُنع الإلّه، من شمس وقمر وسماء ونجوم، وبدايةٌ لخلقه ونهايته، واستقامة وعمل معروف، قدر الإمكان يورثه ثقة تجاه مربيه تعالى، وصلةً قلبية محسوسة مشهودة، ومن ثم التوجه في الصلاة للبيت الحرام، حيث الإمام ﷺ بنورانيته القلبية، سفينة النجاة، وسفينة الإبحار إلى الحضرة الإلّهية، وكانت سورة الفاتحة بحقيقتها، سر الاتصال مع الحبيب ﷺ ، يبيِّنها وحده لنا، وهبه إيّاها تعالى لنا وسيلة، يأتيه ويؤتينا الخير منها، وبما يعود بالخير عليه ﷺ وعلينا، فكل قراءة يقرؤها فيها يرتفع بها ﷺ ، ليبلِّغها عباد الله، ليسمو بهم للإنسانية الحقّة: أنس بالله، والمستأنس بالله، تأنس به الخلائق، بما يكتسب من صفات الفضيلة والكمال من حضرة الله.

فكانت السبع المثاني حياة للقلب الميت، وبصراً للعين العمياء، وسمعاً للأذن الصماء، وريّاً للظمآن، وفيها الغنى كله، والشفاء والسلامة، ثم كتاب الله يُبصر به ويُنطَق به ويُسمَع به.

فمن سلك الطريق الواضح، ورد الماء الغدَق، ومن خالف إلى غيره، وقع في التيه والظلام النفسي القلبي.

فلا تغرِّر بنفسك، بل اطلب الحقيقة واعمل ضمن الحكمة، وكي تستطيع فعل الخيرات، وتصبح إنساناً من أهل الإحسان، عليك بالوسائل التي توصلك للتقوى، التي هي الاستنارة القلبية بنور الله بالاستشفاع بالرسول ﷺ أول العابدين، ابتداءً من الاستقامة، فالصلاة ثم الصيام ومن ثم الحج لبيت الله وإقامة مناسكه، فالزكاة والطهارة، وذكر وتذكر الفراق بالموت، فذلك لك خير معوان.

في هذا السفر المبارك، تجد أيها المؤمن الرحلة الميمونة في الصلاة مع رسول الله ﷺ بتلاوته الفاتحة، تبليغاً عن لسان الله ما أمره بتبليغه، والقرآن الحكيم وسيرته الشخصية بالكمال، شاهد أنه من المرسلين، وسيره على الصراط المستقيم، كان سبباً لنزول الرسالة السماوية (القرآن).. عليه ﷺ .

والحق الراهن:

تعاقبت الأيام والسنون على انبثاق فجر حضارة القرن العشرين بترادف العلم معها، يهبها مدنّيةَ متطورة، تميد بالإنسان رفاهية ودلالاً، وتسدل الستار على ديانات سماوية طماها سيل التحريف والدسوس، فاكتظت بالخرافات، وتقوقعت عن ركب الحضارة المادِّية، والمتمسك بها غدا نموذجاً تخلفيّاً بالياً، حتى بين ظهراني أصحاب هذه الديانات.

وأنشد رجل القرن العشرين بالتقدم والازدهار والتطلُّع نحو الأفضل، وناضل من أجل كبح مشكلاته، فشَهِد ذرى الابتكارات العصرية، وسرت أشعة شمس حضارته لتشمل أعداداً هائلة ما عهدت الأرض مثيلها من السكان، غير أنها وقفت عاجزة أمام ألوان الهلاك الجماعي، وكانت كالَّتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، فالأوبئة التي ولدت مع هذه المدنيّة أكثر من أن تحصى.

الأمراض عاثت في الأرض الفساد، فالإيدز مشكلة عظيمة، تسحق بهولها أعداداً تسير نحو الموت المحتم، وذلك السرطان أعيا الأطباء فكُّه، وأمراض القلب الشائعة... وهكذا دواليك، مشكلات كبرى تطرح نفسها، تُظهر خسارة تفكير هذا الإنسان، وحاجته إلى امتداد أعمق من هذه الحضارة المحصورة بالمادّة، امتداداً عميقاً أزلياً، حتى يتعدى الآلاف من السنين، ليصل إلى الله بالصلاة الحقيقية، ببرهة صدْق قصيرة آناً بعد آن.

فمنذ قليل، كنَّا جميعاً نعيش مع كبرى الدول العالمية، وأكثرها مدنيّة، ونترقب أحداث كارثة إنسانية عمَّت بضبابيتها مشارق الأرض ومغاربها، تخبَّط بها العلماء ووقفوا حيارى تجاه جنون البقر وطاعون الطيور.

حقاً لقد عجزت كبرى الدول العالمية أن تدفع بعظمة علومها وحضارتها، فروسية هذا الفيروس، الذي صال وجال ودفعها بأيديها لتحطم ثروتها، وتزهق أرواح أبقارها وطيورها، دون فائدة منها، ناهيك عن الأعاصير المدمِّرة، والحرائق الكبرى، والحروب المحرقة.

وتلك حكمة واحدة

ولكن تأبى الرحمة الإلّهية أن تترك هذا الإنسان يتخبط في ظلمات الجهل والآلام، والبعد عنها. فدوَّت صرخة العلّامة الإنساني الكبير محمد أمين شيخو قدِّس سره، من أرجاء دمشق إلى العالم قاطبة، بتوقيت إلهي متزامناً مع هذه الكارثة الكبرى، وبحلٍ معجز خفيف على اللسان، ثقيل بالميزان، ينطق بها الله على لسانه من قلبه، بما عقل وعلم من أسرار لسر الأمر الإلّهي بالتكبير على الذبائح. فكانت حكمة إلهية لوت الرؤوس وحنت الجباه للحق القويم، تلك حكمة عظيمة بيّنها لنا العلّامة الجليل، من ثنايا أمر واحدٍ في كتاب الله تعالى:

فانحسرت هذه الأمراض من سورية انحساراً مطلقاً، بعد أن أقدم معظم الذابحين عن طوع، بالتكبير على الذبائح عند ذبح كل واحدة بمفرها.

فما هو عليه الحال بتأويل الفاتحة أم الكتاب السبع المثاني مدار بحثنا، وما انطوت عليه من حكم عظيمة، حتى قرنها تعالى بالقرآن العظيم بقوله جلّ جلاله:

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}[1]...: يا محمّد ﷺ .

كلمات معدودة جُعلت مفتاحاً لكل خير، فلا يكاد مسلم يأتي عملاً من أعمال حياته حتى يتلوها. إن كان عقد بيع وشراء، أو زواج ووفاق أو.. أو... حتى تتم تلاوتها على الأموات. ما الذي جعلها بالتخصيص مقرونة دوماً بكل صلاة مع القرآن الكريم؟!. وما الأسرار والغايات التي اكتنفتها فلا تصح صلاة بدونها، ولو استعرضتَ كلماتها لوجدت حيرة؟!.

١- حين قراءة الفاتحة إفرادياً أو جماعة وتختتم الفاتحة بقول المصلي أو الإمام:

{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}يقول المصلي: آمين بالصلاة الإفرادية.

ويقول الإمام والمصلّون: (آمين).. أيضاً بالصلاة الجماعية فلمن يؤمِّنون جميعاً بقولهم آمين.

٢- الصلاة صلة بين العبد وربّه والظن أنه لا ثالث بينهما فكيف يجرؤ المصلي وهو يخاطب ربه بالصلاة على القول لله {**الْحَمْدُ للهِ**}؟. فهل هناك إلّه غير الله يحمد. حاشا وكلا.

المخاطب بالآية هو الله فكيف لا يقول المصلي لله الحمد لكَ، أليس هو في الصلاة في حضرة الله؟!. لم لا يقول أحمدك يا الله؟.

---

١ – سورة الحجر: الآية (٨٧)

إن كنت أخاطب زيداً من الناس وقلت له: إنّ زيداً أكرمني، فمعنى ذلك أن زيداً آخر غير زيد المخاطَب هو المكرم فكيف أقول لله {**الْحَمْدُ لله**}وليس هناك مع الله إلّه آخر!.

فإن قال المصلي لله {**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**}، فتقتضي الإجابة (أنا رب العالمين).. لا سواي، فيجيبه المصلي: (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ).. عندها تقتضي الإجابة (أنا الرحمن الرحيم وأنا مالك يوم الدين)...

٣- خطاب الإنسان المفرد بصيغة الجمع تعني التعظيم. فالملك حين يقول: نحن جلالة الملك أصدرنا المرسوم الملكي أو يقول: نحن نأمر بكذا، فصيغة الجمع للتعظيم بمعنى أن الملك هو الكل بالكل فهو يحل البرلمان ومجلس الوزراء فالأمر كله له، لذا ينطق عن جلالته بصيغة الجمع فهو يمثل الأمة كلها.

أما العظمة الحقيقة الكلية والشمولية فهي حقّاً للإله الخالق العظيم للجميع، فكيف يخاطبه المصلي بالصلاة بصيغة المفرد لله بقوله: {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**}وصيغة الجمع التي هي صيغة التعظيم يضيفها لنفسه بقوله {**نَعْبُدُ**}؟. كذلك يكررها عن إصرار بالآية بعدها {**وإِيَّاكَ**}بصيغة المفرد لله بكاف الخطاب بينما يقول عن نفسه {**نَسْتَعِينُ**}!.

هذا لا يقوله تعالى بكلامه القرآن الكريم بل يقول دوماً بصيغة الجمع كما بالآية الكريمة: {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**}[٢]وكذا بسورة القدر {**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**}[٣]وآية {**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**}[٤]وغيرها من الآيات الكثير.

---

٢ – سورة الحجر: الآية (٩)

٣ – سورة القدر: الآية (١)

٤ – سورة الكوثر: الآية (١)

لتأويل سورة الفاتحة نرجع إلى الله العظيم في القرآن الكريم، قوله تعالى لرسول الله ﷺ لا للمصلي ولا لي ولا لك **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي...}**: أي الفاتحة **{... وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}**(٥)

إذن فالتالي لسورة الفاتحة على كل مؤمن مصلي أو إمام هو رسول الله ﷺ .

نكرر: لطالما أن المصلي يغدو بين يدي الله في الصلاة وهو بصلةٍ معه، فكيف يُشرك معه إلهاً آخر بقوله لله: **{الْحَمْدُ للهِ..}**: بسورة الفاتحة؟!. والصلاة صلة بين العبد وربه، لمَ لا يقول: أحمدك يا الله، أو الحمد لك يا رب العالمين؟. أإله مع الله؟!.

وكيف يقول: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ..}**، فيُخاطبه تعالى بلغة المفرد بكلمة: **{إِيَّاكَ..}**ويُفخّم نفسه ويُعظمها بكلمة: **{..نَعْبُدُ..}**بلغة الجمع؟!.

بل وكيف يشهد المصلي المفرد بالصلاة أمام ربه شهادة الزور، بأن الناس كلها تعبد الله أو حتى الذين يصلون معه جماعة؟!. إن كان يضمن نفسه، فهل يضمن غيره بالعبادة والطاعة وعدم المعصية بقوله: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ..}**وكذلك الآية: **{وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**يخاطبُ الإلّه العظيم بصيغة المفرد للتصغير ويتكلم عن نفسه بالجمع بلغة التعظيم والتفخيم؟!. ومن وكَّله عن الآخرين ليشهد أنهم فقط بالله يستعينون!. فهل يضمن أن الناس لا يعتمدون إلّا على الله فقط؟!.

إذن: ألا يجدر بنا أن نتحرى الحقيقة وراء مكنونات هذه السورة الكريمة؟!. نتلوها في اليوم أربعين مرة وأكثر، في كل ركعة في الصلوات، لا لن نكتفي بأوانٍ دون غذاء، وعلمٍ دون معنى وحقيقة، وسجع وطباق، وتشبيه وبيان، وإعجاز وإيجاز في اللغة واللغو، والكلام دون هدى للقلب وشفاء، ومعنى للفكر بالإقناع الحق السليم.

---

٥ – سورة الحجر: الآية (٨٧)

هيا بنا معاً بمن أعاد للإسلام بهاءه، وللحق جلاله، وللقرآن العظيم سمو معناه وبيانه بعلومه الكبرى فضيلة العلّامة الإنساني الكبير، حيث بيَّن كشفه الرهيب الحق الذي ما سبق كشفه أحدٌ سواه، وحقّاً وصدقاً ما نقول، وهو أن سيدنا رسول الله ﷺ وعن لسان الله يبلغنا ما أُمِر بتبليغه بقوله للمصلي الحمد لله لأنه تعالى له ﷺ لا لنا آتاها بقوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي...}**[6] والسبع المثاني كما هو معلوم آيات سورة الفاتحة.

وكاشفاً حقيقة الحمد لله على كل ما يسوقه تعالى لعباده، من رفع وخفض، ومن عزَّ وذلَّ، ومن إغناء وإفقار... مفادها الخير بكل الأحوال، وحقائق عن المسيِّر جلَّ شأنه، الذي يربي العالمين، من الذرة إلى المجرة، فالإنس عالم، والجن عالم، والنمل عالم، والأسماك بالبحار عالم و.. هذا الرب الرحمن بذاته، يُظهر ذلك من رحمته بخلقه، ولا بدّ من يوم يرى الإنسان الحقيقة، أن الله هو المالك لهذا الكون بما فيه، منذ أن خلقه تعالى حتى القيامة، المؤمنون جميعاً هم بحالٍ واحد مع رسول الله ﷺ ، ولكل مرتبة ولكل منزلة رأوا ذلك واستيقنته أنفسهم، كان القرآن هدى لهم ونوراً في قلوبهم إلى الصراط المستقيم، فتشرّفت نفوسهم وطهرت بالإقبال الشهودي على الله. فلا يساورهم ريب، ولا يبدِّلون ما أُنزل إليهم، ولا يظنون بالله ظن السوء، بعدها هل يحق عليهم غضب أو ذل، أو فشل وما ضلُّوا؟!... حاشا لله فعدالته فوق الجميع.

وبذلك ساد الصحبُ الأوائل العالم لقرون خلت، ونشروا حضارة الإسلام السامية، فصهرت في بوتقتها كل الأهواء والنوازع والطباع والانحرافات ومِلَل الأمم، لتحيلها إنسانية عامرة بالمودة والإخاء، حضارة عالمية من وحي السماء، انطلقت من قولٍ صادق لا يبدل ولا يتغيّر، محفوظ من العلي القدير به التوحيد الخالص، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى والعمل الصالح.

---

٦ – سورة الحجر: الآية (٨٧)

المعنى الحقيقي

إذن لست أنا ولا أنت من يقرا الفاتحة، إنما هي بالحقيقة لرسول الله ﷺ ، الذي يبيّنِها قلبيّاً ونفسياً شهودياً وللمصلين، لأن الله تعالى آتاها له ﷺ ، لا لي ولا لكَ بقوله كما كررنا وألمحنا:

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}[٧]فهو التالي علينا قول الله:

{الْحَمْدُ للهِ..}: يا أخي. يقولها ﷺ لمن صغى قلبه باستقامته. **{..رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**. وهو رحمةُ العالمين يطلب الهداية والمعونة من الله تعالى لنا أجمعين ب: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ..}**: يا رب: **{..نَسْتَعِينُ ، اهدِنَا..}**:جميعاً صراط الحق المستقيم.

هذا ما عجزت الأوائل والعلماء الأفاضل عن تبيانه، فهمهُ العلّامة محمَّد أمين شيخو قُدِّس سره من ربه، بإقباله العالي عليه، ولن تجد هذه الحقيقة في بطون الكتب كلها من أقوال بني البشر. هذا تعليم الله له لصدقه العظيم، واستحقاقه وأعماله الإنسانية الكبرى، وكفى بهذا البيان الحق إعجازاً ودليلاً، فأحببنا نقله لنفع المسلمين في كل قطر ومصر.

والحمد لله في بدءٍ وفي ختم

---

٧ – سورة الحجر: الآية (٨٧)

الفصل الأول

تأويل السبع المثاني

وكلمة السبع تشمل التطهير. وسبَّع الثوب طهَّره، وكلمة السبع للفاتحة حقيقة لتطهير القلوب من عللها وشوائبها وأدرانها، فرسول الله ﷺ النبي الأمي الذي يُذهِبُ عن المؤمنين إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فهو بالسبع المثاني يزكيهم.

وما سميّت سورة الفاتحة بالمثاني إلا لما انطوت عليه من التثنية بمعيَّة رسول الله ﷺ التي آتاها الله له بقوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي..}**: وهو ﷺ التالي للآيات الكريمة على كل مصلٍّ فهو ﷺ ثانيَ اثنين بكل صلاة، فآيات الفاتحة أيضاً ثناءات عن الحضرة الإلّهية، يتلوها ﷺ في كل آية من آياتها ابتداءً من بسم الله، (بسم)..: مشتقة من السمو والعلو، بما فيه تعالى من سمو بأسمائه الحسنى ف: **{الْحَمْدُ للّهِ..}**: هو الثناء القلبي والامتنان لصاحب الثناء، جلَّ شأنه... لما منَّ تعالى وأبدع، فمنح... **{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}**: فطوبى لمن أوصلهم سعيهم الإيماني وصدقهم واستقامتهم ليغدوا مع رسول الله ﷺ بقلوبهم، يتلو عليهم هذه الثناءات في صلواتهم.

فلو اقتصر المعنى على الثناء للزم الجمع قول ثناءات أو أثنية، ولكنها أيضاً تضمَّنت التثنية فهو ﷺ ثاني اثنين كما أشرنا إذ أن الله آتاهُ إياها: **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}**[8] يا محمّد ﷺ ، يتلوها على المؤمن المصلي المتلقي الألفاظ ومعانيها.

ومن فاز بتلك الحقيقة في صلاته كانت له نهياً عن الفحشاء والمنكر، إذ تثنيه عن كل ما تشتهيه النفس وتهواه من الزائل الفاني، إلى الباقي جلَّ وعلا، وتَعْطِفه على

---

٨ – سورة الحجر: الآية (٨٧).

الوسيلة ﷺ ، باب الإلّه الوفي الأول. فيُطوى بنوره ويُستر، ويكون له وقاءً من الهم والحزن والحسرة والذل، وكفاية عن لذائذ الشهوات الدنيَّة المنقضية، التي يتلوها الألم في ديناه وأُخراه، ويريه حقائق الدنيا الدنية، ذات المظهر الخداع البرّاق إذ يصرفه ﷺ بروحانيته النورانية الصاعقة ويلويه عن لذائذ الشقاء والحسرات الدنيّة فيكفيه ويغنيه عن الهوى المهلك ويُعرض عنه، ويرى أن الدنيا جيفة طلابها كلابها، فيسلك من حيث أراد الله له، وما أراد تعالى لعباده إلّا السعادة والهناء ونوال المكرمات. كيف لا يحظى بها، وأصبح رسول الله ﷺ ثانِيه، أي شفيعه، يُذهب عنه إصره والأغلال التي عليه، يستهديه في أمره ويستلهمه الرشد والصواب، من الحق جلَّ وعلا. وهو ﷺ شفيعهُ بنوره عند موته ويوم القيامة، فالشفاعة للمؤمنين لا لأهل الكبائر الضالين المضلين.

فمن كان رسول الله ﷺ ثانِيه وشفيعه، كيف يكون عليه حالُهُ وقولُه، وملكاته وطاقاته، وقد أسلم وجهه لله وهو محسن، إذ استمسك بالعروة الوثقى "نفس المصطفى ﷺ " لا انفصام لها، فهو على صراط مستقيم.

دعاء الاستفتاح

«وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين».

وهذا الدعاء يقوم به رسول الله ﷺ ، الذي آتاه الله السبع المثاني، يدل أن كل أفعاله ﷺ وأقواله، وحيٌ يوحى، ولم يكن نطقه لحظة عن الهوى، بل عن الله الذي علَّمه كما في قوله تعالى: {**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}[9]وآية: {**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**}[10]نص دعاء الاستفتاح. فكان ﷺ هادياً وداعياً وسراجاً منيراً لكافة البشر، وبالحال القلبي قبل بعثته فهو ﷺ السراج المنير لقلوب الأنبياء بميثاقهم:
{**وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**}[11]وبالحال القلبي والقول الثابت بعد بعثته ﷺ
.

أما ما ورد في دعاء الاستفتاح، فهو دلالة لطريق الإيمان بالوجهة إلى فاطر السموات والأرض والخلاص من الشرك، ودعوة للتوجه الذاتي (وجهت وجهي).. فإن لم يستدل الإنسان بنفسه ولم يفكر بذاته، فلا يمكن أن يهتدي، ومن لا يسلكه، لن يكون إنساناً، ولن يكون أهلاً لدخول الجنان، بل يبقى بهيماً لا يعرف سبب

---

٩ – سورة الأنعام: الآية (٧٩)

١٠ – سورة الأنعام: الآية (١٦٢)

١١ – سورة آل عمران: الآية (٨١).

مجيئه للدنيا، فيضيعها سدى... وهكذا فرسولُ الله ﷺ كان حنيفاً، ميَّالاً بحب وحنان إلى الله، يدعوك أن تدخل على الله بصحبته ﷺ ليحصل لك حب وحنين إلى الله لما تراه من الكمال الإلٰهي، فلا تتبع بعدها كلاماً غير كلامه تعالى، ولم ينل ﷺ ذلك المقام العالي الرفيع جزافاً، بل وهب في سبيل الله كل شيء. حتى حياته الشريفة، وهبها بكافة أعماله وتضحياته الإنسانية المجيدة النبيلة، وأفعاله كلها خالصة لله والدعوة إليه تعالى، ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ضحّى ﷺ بروحه الشريفة وجسمه كما في قوله ﷺ : **«وهبت روحي وجسدي لأمتي»**.

كما وهب ﷺ نفسه الشريفة، وملكاته وكافة ميوله وشهواته لله تعالى، كما في قوله ﷺ : (والذي نفس محمدٍ بيده)... فقد تخلّى عن كل شيء لذي الجلال والإكرام، جلّ بهاه. فلم يجعله تعالى رسوله جزافاً بل باستحقاقه، إذ كان أول المسلمين لله تعالى، والوفي الأول بحمل الأمانة العظمى، وأنت بشفاعته ومعيته القلبية بالصلاة، تستفيد فائدة ما توصلتْ إليها عين، ولا بلغ مداها سماع إذن، ولا خطرت على قلب بشر.

* * * * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(تأويل سورة الفاتحة)..

السر الأعظم الذي تنطوي عليه فاتحة الكتاب

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ :

(لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[١٢]

وفي حديث آخر:

«من صلّى صلاةً لم يقرأْ فيها بفاتحةِ الكتابِ فهيَ خداجٌ [١٣]**، فهي خداجٌ، فهي خداجٌ»**[١٤]. فما هي الصلاة؟.

وما هو السر الأعظم الذي تنطوي عليه فاتحة الكتاب حتى تتوقَّف عليها الصلاة؟.

* * *

الصلاة:

هي صلة النفس بربِّها، وارتباطها الوثيق بنور خالقها بارتباطها برسوله الكريم ﷺ . تلك هي الصلاة في حقيقتها. وإذا خلتِ الصلاة من هذه الصِّلة والارتباط، فقد أصبحت صورةً لا حقيقة. وهي والحالة هذه مجرَّد أقوال وأفعال.

ولكن كيف تحصل لنا هذه الصلة بربِّنا؟. وكيف نصل إلى الصلاة في روحها وحقيقتها؟.

---

١٢ –رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده.

١٣ - الخداج: النقص

١٤ – رواه مسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة. الموطأ في الصلاة، باب القراءة خلف الإمام، أبو داوود في الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته

الفاتحة تُريك كمالَ الله سبحانه، وبرؤية الكمال تتولَّد المحبَّة وتحصل الصلة، وتلك هي الثمرة المطلوبة من تِلاوتها في الصلاة، وفي كل ركعة من الركعات.
وكلَّما تلا المؤمن فاتحة الكتاب مرةً، ازداد في الكمال الإلّهي شهوداً ومعرفة، وسما في محبّة الله بصلاته درجة فدرجة، لا سيما في صلاة التراويح في شهر رمضان.
وفي الحديث الشريف: «**الصلاةُ معراجُ المؤمنِ**»[١٥]

فهي معراج يرتقي بها في محبّة الله ومعرفته من حال إلى حال، وهي معراج يتدرَّج بها المؤمن في رؤية طريق الفضيلة آناً بعد آن، إذ أنَّ النفس بهذه الصلة بمعية الإمام المرشد للتوجه للذات الإلّهية العليّة، تستنير بنور الحق، فترى طريق الخير من الشرِّ. والصَّلاة للمؤمن نورٌ وبرهان. لما فيها من نعيم ولذة وسرور، تغنيه عن زخرف الدنيا ولذتها. قال تعالى:

{...**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**...}[١٦]

* * *

---

١٥ - وفي كنز العمال (الصلاة قربان المؤمن). رقم الحديث /١٨٩٠٧/.

١٦ - سورة العنكبوت: الآية (٤٥)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

ماذا تفعل الاستعاذة بالله تعالى ؟

أمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم عندما نريد أن نقرأ القرآن لقوله تعالى:

{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}[١٧]

فما معنى الاستعاذة؟. وما معنى قولنا بالله؟.

ومن هو الشيطان؟. وما معنى الرجيم؟.

* * *

الاستعاذة:

مصدر لفعل عاذ، بمعنى ألتجئ وأحتمي معتزّاً مستجيراً بصاحب العزَّة والقوة، ومن اعتز بالله حقّاً كفاه، ومن الذل وقاه، {...**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**...}[١٨] ولا يكون الالتجاء الاحتماء إلّا بقوي عزيز الجانب.

فمن كان مع الله فأي قوي جبار دونه: حتماً حقّاً على الله نصر هذا المؤمن.

وعلى وجه المثال نقول:

لو أن طفلاً كان يسير في الطريق، فلحق به عدو من إنسان أو حيوان يريد إيقاع السوء به وأذاه، وفيما هو على أشد ما يكون من الخوف والذعر، ألفى أباه قادماً نحوه، أفتراه والحالة هذه يلتجئ ويحتمي، وإن شئت فقل أيعوذ بغير أبيه؟. إنه يعوذ به، لأنه يعلم حبّه وإخلاصه وقوَّته على دفع عدوّه عنه، وكذلك الإنسان المؤمن الحق، ما عليه إلّا أن يعوذ بربِّه ويقبل عليه بنفسه، بمعية إمامه ﷺ ، وهنالك يُحفظ

---

١٧ – سورة النحل: الآية (٩٨)

١٨ – سورة المنافقون: الآية (٨)

ويُوقى، ويندفع عنه الشر والأذى وينتصر، وإلى جانب ذلك يسمو ويرقى. ويكون له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، حيث يشتق به ﷺ نوراً من الله تعالى، يحفظ به من وساوس الشيطان ونزغاته، ويحفظ كلَّ مصلٍ معه مقبل بمعيَّته النورانية على من هو تعالى نور السموات والأرض، فلا سبيل للشيطان على هؤلاء المؤمنين بالله ورسوله ﷺ كما قال تعالى: **{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**[١٩]وتخلو النفس إلا من ذكر ربها، وعند تلاوة القرآن الكريم يكون الفهم والهدى.

ومعنى قولنا (بالله)..: أي بالمطاع، والمُطاع هنا: هو الجاري حكمه وأمره على كل مخلوق بلا استثناء شاء أو أبى "وما في حكمه وأمره، إلّا الخير والرحمة"، فالسموات والأرض خاضعات لأمره تعالى طوعاً، فلا تخرجان عن نظامهما الذي نظّمه تعالى لهما أبداً، فكل مخلوق سائر بحسب ما خُصِّص له من الوظائف، وقائم بما هو مخلوق له من الأعمال، فالجمل مسيَّر مذلَّل لخدمة الإنسان، يحمل له الأثقال، والنحلة مسُوقَةٌ ومضطرة إلى أن تجمع العسل من الأزهار، والكرة الأرضية مسيَّرة بأمره تعالى تسبح في الفضاء؛ والقمر مسيَّر يسبح حول الأرض وهو دائب الحركة والدوران؛ وما من دابة إلا هو تعالى آخذٌ بناصيتها يسيِّرها كيف يشاء، والكون كله خاضع لأمر الله، ولا يستطيع أن يخرج عن أمر هذا المطاع. إذ الكون كله بسمائه وأرضه، لا يخرج قيد أنملة عن تسيير الله المسيِّر له ضمن الخير والتسخير لنا ضمن نظام صارم بالدقَّة لخدمتنا وطعامنا وشرابنا، ووجود النظام يدلُّ يقيناً على وجود المنظم، وبالتفكير الصادق بهذا يصل المرء إلى الإيمان حقّاً. وذلك ما نفهمه من كلمة (بالله).. أي المسيِّر جلَّ شأنه.

والشيطان: مأخوذة من: شَطَنَ، وشَاطَ.

---

١٩ – سورة النحل: الآية (٩٩)

وشطن: بمعنى بَعُدَ عن الحق، وشاط: احترق وهلك.
فالشيطان: هو البعيد عن الحق المحترق الهالك، فببعده عن طريق الحق، أصابه الاحتراق والهلاك، إذ خسر الحياة الحقيقية من الحي جلَّ وعلا.
والرجيم أيضاً: مشتقة من الرجم وهو المرجوم الذي ينصبُّ عليه البلاء والشقاء بصورة متمادية، وما أصابه البلاء والشقاء إلّا ببعده وإعراضه عن الله؛ والبعد والإعراض سبب كل بلاء، ومصدر كل شقاء:
{..وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ.. }[٢٠]
ومجمل قولنا (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)..: أي: أحتمي وأعتز بالمطاع الذي خضع لأمره كل شيء، من الشيطان الذي ببعده عن الحق صار معذَّباً دوماً، ومحروماً من كل خير.
فإذا التجأت بنفسك إلى الله عند قراءة القرآن، بعد أن آمنت بالله من ثنايا آياته الكونية وصنعه العظيم، إيماناً ذاتياً من آيات الكون صنع الله، كما آمن أبونا إبراهيم ﵇، وأهل الكهف، وسيدنا رسول الله ﷺ ، إيماناً منبعثاً من نفسك وبحثك الذاتي، وأحببت بما فيك من كمال رسولَ الله ودخلت بمعيَّته ﷺ حضرة المطاع، الذي يطيعه الكون كله، من ذرَّاته لمجرَّاته، والذي ذلَّت وخضعت لأمره سائر المخلوقات، فهنالك تصبح في حصن حصين، وحرز منيع، لا يدخله شيطان، وتنقطع عنك وأنت في هذا الحصن وساوس الشيطان، ويزول الوقر من الأذنين، وينكشف الغطاء عن العينين، عندها تسمع الكلام من المتكلِّم جلَّ جلاله، وترى وتشهد ما في أوامره من المنافع والخيرات.

* * *

٢٠ – سورة فاطر: الآية (٤٣)

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (١)..}

وبعد قولك: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).. تستطيع أن تقول:

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}: فما معنى بسم الله؟.

وما معنى الرَّحمن؟.

وما معنى الرَّحيم؟.

بِسْم: حرف وكلمة وهما: الباء واسم. ولفهم معنى (بِسْم اللهِ).. نقول على وجه المثال: إن الحاكم عندما يلفظ الحكم يقول: باسم القانون، أي: إنني إنما أحكم وأبيِّن العقوبة التي أمر بها القانون. ويقول الرئيس: باسم الأمة أتكلَّم، أي: إنني أبيِّن ما أمرتني ببيانه، وأبلغ ما ترغب به.

فبناءً على ما تقدَّم يكون معنى قولنا: (بسم الله)..، أي: إنني إنما أتلو على نفسي كما يتلو عليَّ رسول الله ﷺ وعلى غيري كلام الله، وإنما أبيِّن أمر الإلَه، وأُبلِّغ كلام المطاع، ولكن ما صفة هذا المطاع العظيم؟. إنه:

{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}:

وصفة الرَّحْمنِ تعمُّ كلَّ موجود، ويشمل خيرها كل مخلوق.

والرَّحْمنِ: هو المتفضل بالشِّفاء على جميع المخلوقات، والله تعالى باسم الرَّحمن يتجلّى على المريض والفقير والمهموم والمحزون، فيكون المرضُ والفقرُ والهمُّ والحزنُ، وكلُّ بلاء وعذاب، سبباً للتوبة والإنابة إلى الحق، والسعادة دنيا وآخرة.

كلُّ ذلك يكون رحمةً من الله تعالى، إذ بها يحصل الشِّفاء النفسي، والتدرُّج بالسمو من حالٍ إلى حال.

فكثيراً ما يكون البلاء سبباً في الرجوع إلى أمر الله، وداعياً يدعو النفس المعرضة إلى الإقبال على الله، وهنالك يحصل لها بتوجهها وصلتها وبإقبالها الشفاء والخلاص، مما عَلِقَ بها من أدران.

فباسم الرَّحمن لمن استعاذ به حقّاً، وتوجه إليه تعالى بكل قلبه، عندها يعود المرضُ على المريض صحة، وينقلب الفقر غنىً، والإخفاق نجاحاً، والعسرُ يسراً، وباسم الرَّحمن وما في أسمائه تعالى الحسنى من سموّ، تتدرَّج سائر المخلوقات حتى الجمادات والحيوانات، في تذوُّق الفضل الإلّهي آناً بعد آن؛ وباسم الرحمن، صار خروجك أيها الإنسان من العدم إلى الوجود، وبه تحيا وتنبعث فيك الحياة بعد الموت؛ وباسم الرَّحْمنِ، يتدرَّج المؤمن في المعرفة الإلّهية من كمال إلى أكمل يوماً بعد يوم؛ وباسم الرَّحْمنِ يزداد عذاب أهل النار، وهنالك يُنسيهم حريقها الشديد أَلَم أمراضهم النفسية الجهنَّمية، التي نشأت بسبب سيرهم مع هواهم في الدنيا، وعصيانهم لأوامر ربّ العالمين، فهم يغيبون في عذاب النار الشديد، عن عذاب نفوسهم الغليظ، وفتك أمراضها الذَّريع: بسبب سابق أعمالهم الخبيثة، التي جلبت العار والذلة والحسرة والندامة لصاحبها المعرض.

وباسم الرَّحْمنِ يتجلَّى الله في الجنَّة على المؤمنين، فيرتقون في منازل القرب، ويعرجون في معارج الكمال، فمن كمال إلى أكمل، وهكذا، ولا ينقطع خير هذا الاسم أبداً، وينتهي فضل الرَّحْمنِ.

فالرَّحمن إذاً هو المتجلِّي على عباده بالرَّحمة، وذلك ليس خاصاً بأهل الطاعة من المؤمنين، فالخلْق جميعاً تشملهم رحمته تعالى بما يناسب في الدنيا والآخرة. فترى المؤمنين في الجنَّة، يتمتَّعون بما أعدَّ لهم ربُّهم وبما يتناسب مع حالهم من النعيم المقيم، وقد شفيت قلوبهم باسم الرحمن بصدْقهم معه تعالى.

وترى الكفَّار في النار يداوَوْن على ما فيهم من أمراض نفسية، بما يناسبهم من عذاب الجحيم، وذلك من الله تعالى رحمة، وهو سبحانه رحمن بخلْقه كافة، لأن ذاته تعالى رحيم.

والرَّحيم: هو المتجلِّي على عباده بالنعمة والخير، وهو خاص بأهل الطاعة والاستقامة من المؤمنين، ففي الدنيا يحيون حياة طيبة، وينعمون بفضل ربّهم الرحيم، وفي الجنَّة يتمتَّعون بما أعدَّ الله تعالى لهم فيها من النعيم المقيم.

وهكذا يا أخي المؤمن، الطالب للتقوى "التي هي الاستنارة القلبية الدائمية بنور الله" أنت أيها المجاهد في سبيل الله، والعامل والمضحي للوصول إلى الله بالأصول، إن كلمة: **{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}** إنما هي خطاب لك أيها المصلِّي، من رسول الله ﷺ يُخاطبك بها معرِّفاً ومبيّناً، أنه إنما يتلو عليك ما يتلوه، باسم الله، وعن لسان الله، وهو بيان لك من الله، ذلك أن الله تعالى، خصَّ رسوله الكريم بتلاوة الفاتحة والقرآن الكريم بقوله تعالى:

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}[٢١]وأنت تكرر لنفسك ما يتلوه ﷺ .

وينصت هذا المصلِّي لرسول الله ﷺ ويصغي إليه، وتتفتَّح مسامع نفسه لِمَا سيتلوه عليه، فإذا به ﷺ يتلو كلام الله قائلاً:

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ {١}الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {٢}الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ {٣}مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}: تصدِّق رسول الله ﷺ فيما يقول، وتردد في نفسك بعدها معاهداً رسول الله ﷺ : **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}:** بمعيَّتك يا رسول الله ندخل على الله مطيعين له، فتعاهد ربَّك، وأنت قلبيّاً بمعيّة رسوله الكريم، السراج المنير لقلبك، على أن تكون عبداً مطيعاً له، وتطلب المعونة منه تعالى. عندها يقول رسول الله ﷺ وأنت معه:

{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {٦}صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}. فهو ﷺ يطلب الهداية لك وللناس عندها تقول: **(آمين)**...

---

٢١ – سورة الحجر: الآية (٨٧)

هذه هي الصلاة: عندها يُملي الله أمره عليك عن طريق رسوله ﷺ ، بما تيسر من آيات القرآن بالصلاة، فتركع طائعاً خاضعاً، وتسجد طالباً المعونة من الله تعالى على طاعته، فالصلاة يجب أن يكون رسول الله ﷺ في نفسك يا مؤمن: الدخول على الله بصحبة رسول الله ﷺ . فتعقل بنفسك من أسرار الصلاة ومعاني كلام الله، وترى طرفاً من أسماء الله العظيم الحسنى. وفي الحديث الشريف:

«وليس للعبد من صلاته إلَّا ما عقل منها»[٢٢].

ولابد لنا والحالة هذه من أن نفصِّل في هذه النقطة بعض التفصيل، لاسيَّما والصلاة هي عماد الدين ورأس الأمر كله، فنقول:

العقل المستنير ولوازمه

بما أنَّ الصلاة هي صلة النفس بخالقها، وبما أن العقل النوراني بالشهود القلبي هو روح الصلاة وثمرتها، لذلك كان لزاماً علينا أن نُعرِّف المراد من العقل، وماذا نعقل في صلاتنا، والأصول الواجب إتِّباعها حتى نصل إلى العقل المستنير. ونبدأ ببيان المراد من العقل، عقل السموّ والعلوّ فنقول:

العقل المستنير ولوازمه:

المراد بالعقل هنا: العقل الشهودي النفسي، وهو ما تعيه النفس وما تختزنه فيها، من بعد أن شهدته ورأته، أما ما يعقله الإنسان في هذه الصلاة التي نحن بصددها بمعية السراج المنير ﷺ قلبيّاً، فيدور حول أمرين اثنين:

فهو يعقل طرفاً من الكمالات الإلَهية عقلاً نفسياً، من بعد أن آمن بها وعقلها فكرياً، وإلى جانب ذلك يعقل سرَّ التشريع الإلَهي، وبعض ما انطوت عليه الأوامر التي أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ القرآن الكريم، ويكون عقل الكمالات الإلَهية،

---

٢٢ - كنز العمال: ج٣. ص٣٨٢. ح٧٠٥٠

بمشاهدة المصلْي طرفاً من هذه الكمالات شهوداً نفسياً، إذ يرى العظمة الإلّهية والعدل، ويشهد الرأفة والرحمة والعطف والحنان، والفضل والإحسان، وغير ذلك ممَّا انطوت عليه الأسماء الإلّهية، وهنالك تهضم وتتمثَّل نفسه هذه الكمالات وتعيها، وتغدو مستقرة فيها.

أما عقل الأوامر الإلّهية، فتكون برؤية ما انطوت عليه من خير، فيرى المصلّي مثلاً عندما يقرأ آيات الحجاب، فائدة الحجاب وما فيه من الخير، للمرأة ذاتها وذويها، والمجموعة البشرية كلها، فهو حفْظٌ من الوقوع في الفواحش المهلكة، وما في تركه وما ينتج عنه قطع الصلات الاجتماعية الإنسانية. وعندما يقرأ الآيات التي تنهى عن الخمر والميسر، يرى ما فيهما من الأذى وما ينجم عن تعاطيهما من مضرَّات. وكذلك الأمر بالنسبة للميتة، وما ينشأ عن أكلها من أمراض وعاهات، ويعلم فائدة التكبير (قول: الله أكبر).. على الذبيحة عند ذبحها، وزوال الجراثيم والمكروبات من جسدها، والنعيم الذي تحظى به نفس الذبيحة بالتكبير عليها، ثم صحة المجتمع بالطعام الطيب الخالي من الأضرار بالتكبير، ويرى الفائدة من الصيام والصلاة والحج والزكاة، والحكمة منها، إلى غير ذلك من الأوامر التي يعقلها المصلّي بما يسمعه في صلاته من آيات القرآن. فهو لا يسمع بآية، إلَّا ويرى ما انطوت عليه من معانٍ، رؤية متناسبة مع مقدار ما هو فيه من وجهةٍ إلى خالقه، وما هو عليه من صلةٍ وإقبال، وذلك ما نعنيه بعقل الأوامر الإلّهية.

ومن لم يعقل في صلاته طرفاً من الكمالات الإلّهية، ومن لم يعقل ما في الأوامر الإلّهية من خيرات، ومن لم يعقل شيئاً مما تنطوي عليه آيات القرآن الكريم التي يتلوها في الصلاة، فليسَ بعجيب ألَّا يستفيد إلَّا القليل القليل، إذ أنه لم يَفد منها

شيئاً، بل أجراً زهيداً على التعب، لعدم تحقق الغاية التي من أجلها فُرضت الصلاة.
وليس فرض الصلاة فرضاً إكراهياً: **{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.. }**[٢٣]ولا إجبارياً.
الله تعالى منح الإنسان حرية الاختيار، والصلاة فرض لديمومة الحياة القلبية، والاستنارة الدائمية بنور الله، كما أن الطعام فرض على الإنسان أن يأكله، وليس فرضاً إجبارياً بل لديمومة الحياة الجسمية، وإلا فالموت يكون لزاماً لنا، وكذا الصلاة فرض لنا ولخيرنا «**وتارك الصلاة لا خير فيه**».
أما الطريق إلى العقل المستنير، فإنما يكون برفقة ذلك الإمام والاقتداء به، وهو في الحقيقة السيد الأعظم ﷺ . ومن لم يُصَلِّ مقتدياً بذلك الإمام، فلن يستطيع أن يصل إلى العقل، ولو أنه صلَّى في اليوم مئة ركعة، ولو أنه قام يصلِّي الليل كله.
ولعلَّك تسأل عن السبب وتعجب من هذا القول فأقول:
إذا كان العقل نتيجة لما يحصل عليه المصلِّي من شهود ورؤية نفسية، فكيف تستطيع هذه النفس أن تشاهد كمال الله وليس لها نور تُشاهد به هذا الكمال؟!.
أم كيف تتكشف لها المعاني وليس لها سراج منير يُريها هذه المعاني، ويُبيِّن لها ما في الأوامر الإلَهية من خيرات؟!. لذلك فهذا المصباح من لوازم الرؤية، وهذا السراج المنير من لوازم وضروريات مَنْ يريد أن يصلَ إلى العقل. وما ذاك المصباح والسراج إلَّا رسولُ الله ﷺ .
قال تعالى مشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥).. وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً}**[٢٤]

لِمَ الاتجاه إلى الكعبة حصراً؟.

---

٢٣ - سورة البقرة: الآية (٢٥٦)

٢٤ - سورة الأحزاب: الآية (٤٥-٤٦)

وما أَمَرَ الله تعالى رسوله بالاتجاه شطر المسجد الحرام إلَّا لتكون نفسه مقبلة عليه تعالى من ذلك المكان، لنستطيع نحن أن نولِّي وجهنا شطره حيثما كُنَّا، وفي أي مكان وُجدنا، فنجعله لنا في إقبالنا على الله إماماً، وليكون لنفوسنا سراجاً مضيئاً، وذلك سرّ الأمر الإلٓهي ولُبَابُهُ، قال تعالى: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...}**[٢٥] وهكذا فالاتجاه إلى الكعبة الشريفة واستقبال هذه القبلة، ركن من أركان هذه الصلاة. ومن لم يُصلِّ جامعاً نفسه فيها، مقبلاً على الله بصحبة هذا الإمام، فلا يَعقِلُ من صلاته شيئاً، لأنه إنَّما يصلِّي وحيداً فريداً، وبذلك يطمع الشيطان فيه ويهرع إليه، فيملأ قلبه بالهواجس والوساوس والخطرات، ورسول الله ﷺ يقول:

«**عليكم بالجماعة وإيَّاكم والفُرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد**»[٢٦]. وليكون رسول الله ﷺ لك ثاني اثنين، يغمرك في الصلاة يفيض عليك مما أفاض الله عليه من أسمائه الحسنى العلية، وهذا معنى الشفاعة من الشفع أي الازدواج النفسي والإقبال معاً على الله تعالى.

قال تعالى:

{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ...}[٢٧] أي: عنه ﷺ بقلوبكم.

إذن: رسول الله ﷺ هو السراج المنير، يهدي به الله من ابتغى رضوانه سبل السلام، ويخرجه من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديه إلى صراط مستقيم، وقد أمر الله

---

٢٥ – سورة البقرة: الآية (١٥٠)

٢٦ - صحيح الترمذي: /كتاب الفتن/ رقم الحديث (٢٠٩١)..

٢٧ – سورة آل عمران: الآية (١٠٣)

تعالى المؤمنين كافة بالصلاة عليه: **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}**(٢٨)

ولكن أين يتم هذا الاجتماع بروحانيته ﷺ ؟. ومتى؟. بالطبع لن يتوجه الطلاب نحو الجامعة أو المدرسة، مالم يكن فيها المعلم لهم.

ولن يتوجه المسافرون نحو المطار أو المرفأ، مالم يوجد فيها طائرات أو سفن للترحال، وهكذا فالله تعالى أمر رسوله ﷺ بالتوجه شطر المسجد الحرام، وأمر المقتدين به بالتوجه شطره، حيث يتم الاجتماع فالشفاعة الحقة، حيث مشاهدة العلم والمعرفة، والسياحة القلبية في حضرة الله تعالى، والأمن والأمان من ذلك المكان... ومن لم يكن له في صلاته رسول الله ﷺ سراجاً منيراً، فإنه يتخبط في الظلمات، لقوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}(٢٩)

وبناءً على ما قدمناه نقول: نحن في صلاتنا واستقبالنا الكعبة لا نعبد الكعبة، ولا نتَّجه إلى الأحجار، بل إنما نتَّجه من ذلك المسجد الحرام إلى الله،

ونحن لا نعبد رسول الله ﷺ ، بل إنما نتَّخذه لنا في صلاتنا إماماً، وفي نفوسنا سراجاً منيراً، تدخل نفوسنا متى أرادت الإقبال على الله، من ذلك المكان، فتجد إمامها به، فتقتدي به، وتُقبل على الله بمعيَّته، وهو لها نِعْمَ الإمام وخير رفيق. وتستنير بالنور الإلَهي الساطع على نفسه ﷺ بسبب إقباله على الله، ويُريها بعض ما استكنَّ في أوامره تعالى من الأسرار والخيرات. وهذا يَبيِّن لنا سرَّ قوله تعالى:

---

٢٨ – سورة الأحزاب: الآية (٥٦)

٢٩ – سورة الحديد: الآية (٢٨)

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}[٣٠]

فما أمرنا الله تعالى بالصلاة على هذا الرسول الكريم ﷺ إلَّا لنصل نفوسنا به، من الباب الأوسع، المنير الأعظم لقلوبنا، فندخل على الله بمعيَّته، وتستنير بذلك النور الإلَهي الساطع على نفسه. ومن لا صلة له برسول الله ﷺ ، ومن لا محبَّة له لهذا الرسول الكريم ﷺ ، فليس بمستطيع مهما حاول وجهد، أن يُصلِّي الصلاة التي أمر بها الله، وهو محروم من ذوق الإقبال على الله، أعشى البصيرة عن رؤية كمال الله، وهو ليس بمدرك شيئاً ممَّا يقرؤه من آيات، قال تعالى:

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ...}[٣١]إذن: ينادي الله عباده:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٣٢]يا أيها الذين آمنوا حتى تستطيعوا أن تعرفوا الأوامر، طريق الحق {..**اتَّقُواْ اللّهَ**..}: ولكن كيف تكون التقوى؟. {..**وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ**..}: يا مؤمن اتق الله، بدون وسيلة لا تحصل التقوى، صاحبْ رسول الله، أُدخلْ معه على الله، تجد حكم الله ضمن العدالة والرحمة. حتى تصير لك هذه الصحبة لرسول الله: {..**وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ**..}: احذر المنكر إن حدثتك نفسُك به، افعل المعروف، وحافظْ على نفسك، تحصلْ ثقة بنفسك، تصلي تكتسب الكمال، فتقبل على الله، فتعرف أهل الكمال، فتحب رسول الله، وتدخل بمعيته على الله {..**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}: أرضك تصبح أهلاً لزرع الخيرات، عندها تحصل لك التقوى، والاجتماع بالإمام ﷺ

---

٣٠ – سورة الأحزاب: الآية (٥٦)

٣١ – سورة الأنعام: الآية (٣٩)

٣٢ – سورة المائدة: الآية (٣٥)

يتلو عليك آيات الله، ويبيّن ما نُزِّل إليك، {...**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً...**}[٣٣] {...**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**}[٣٤]

أقول: والاتجاه إلى الله تعالى من طريق الكعبة، ما هو بالأمر الجديد الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ عن لسان حضرة الله، بل إنما جعلها الله تعالى قبلة العالمين منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام. وقد ذكر لنا تعالى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام إنما كان يعلّم الناس من قبل قواعد الاتجاه إلى الله تعالى من طريق هذا البيت، فقال تعالى:

{**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**}[٣٥]

وليست الكعبة قبلة لسيدنا إبراهيم عليه السلام فحسب، بل إنما هي أول بيت وضع للناس منذ أن أوجدهم الله تعالى على سطح هذه الأرض، وإن شئت فقل من لَدُن آدم عليه السلام، قال تعالى:

{**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**}[٣٦]

فالكعبة إذن: هي السبيل في قيام وجهة الأنفس إلى خالقها في الصلاة، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة، قال تعالى:

{**جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ...**}[٣٧]

---

٣٣ – سورة البقرة: الآية (٢٦٩)

٣٤ – سورة النحل: الآية (٤٤)

٣٥ – سورة البقرة: الآية (١٢٧)

٣٦ – سورة آل عمران: الآية (٩٦)

٣٧ – سورة المائدة: الآية (٩٧)

هذا وقد أمر تعالى سيدنا موسى وهارون عليهما السلام بقوله: **{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}**[٣٨]وآية: {...**وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ**...}: العبرة هي الارتباط بالإمام والاستشفاع به لكي يعرج بهم إلى الله تعالى.

ومشروعية ذلك كما بيَّنت الآيات الكريمة، أن تجتمع الأنفس في كل زمان برسولها المُقبلة نفسه من ذلك المكان على الله.

أما وقد شرَّف الله تعالى الآن العالم ببعثة سيِّد ولد آدم فهو ﷺ إمامنا وإمام العالمين. وروح الصلاة وريحانها، أن تُقبل على الله بمعيَّته، وتعرج نفسك إلى الله تعالى برفقته. ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور.

* * *

---

٣٨ – سورة يونس: الآية (٨٧)

عودٌ على بدء: وإيضاح إثر إيجاز

{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)..}

لفهم هذه الآية الكريمة نشرح كل كلمة من كلماتها، وعند ذلك نستطيع فهم معناها بمجملها. ولذلك نقول:

الحمد: هو ما ينبعث في النفس من تقدير المحسن، وما ينشأ فيها من الثناء على المنعم المتفضِّل، فالامتنان الذي نقابل به من ساق لنا الخير حمدٌ، والثناء الذي نرجع به على من أوْلانا النعمة وصدر عنه الخير حمد.

والحمد إذن حالة نفسية، تقوم في النفس تجاه المحسن المتفضِّل عندما نرى فضله وإحسانه، ولا يُحمد الشيء إلَّا إذا كان جامعاً لكل خير من كل وجه، وخالياً من كل شائبة ونقص.

فلِمَن الحمد يا تُرى؟. ومن هو الذي يستحق الحمد فيحمده كل شخص، لا بل كل موجود ونفس، على كل عمل وفعل؟.

لقد تبيَّن على لسان رسول الله ﷺ أن: **{الْحَمْدُ للهِ}**وحده، فهو خالقنا ورازقنا، ورازق الخلائق كلها، وله المنَّة والفضل، على نِعَم السمع والذوق والبصر والأمطار والثمار والطعام والشراب، والحياة والمشاعر والمسرَّات والعلاجات، وما ينتج عنها من خيرات.

{للهِ}: وكلمة (لِلَّهِ).. مأخوذة من الإلّه، والإلّه: هو الذي يؤول إليه أمر كل ما في الكون، من حيث رزقه ومعاشه وإمداده بالحياة, وقيامه وتسييره في أعماله، ومنحه ما يتطلَّبه في حياته بما يتناسب وكمال كافة المخلوقات، فمن كمال لكمال أوسع، وليس بالإمكان أبدع مما كان.. أي: ليس بإمكان أحد من البشر، أن يُبدع مثل هذا الإبداع أبداً. فسبحانك ربِّي ما أعظم كمالاتك، ولا إلّه لي وللكائنات كلها سواك. فرسول الله ﷺ بالصلاة يريد أن يعرِّفك، بأنه تعالى يُحمد على تسييره لك ولهذا

الكون، فما من حادثة تحدث، ولا مصيبة أو ضائقة تلم وتنزل، ولا عسر أو يسر، ولا مرض أو شفاء، وما من همٍّ أو غم، ولا نصرة أو خذلان، وما من واقع يقع في هذا الكون، من عطاء ورخاء، أو علاجٍ، إلَّا وهو منه تعالى محض الخير والفضل والإحسان، فهو سبحانه يُحمد على كل حال، وهو تعالى يستحق الحمد، وله الحمد في كل ما يسوقه لهذه المخلوقات، أدرك طرفاً من ذلك أولو العلم والبصائر، ولو انكشف الغطاء، لما اخترت إلَّا ما اختاره الله لك وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وكيف لا يُحمد الله تعالى على ما يسوقه لعباده، وهو الرَّحمن الرَّحيم؟.

وهل يُعاملك الرَّحمن إلَّا بما فيه السعادة لك، وهل يسوق لك هذا الرب الرحيم إلَّا ما فيه خيرك؟.

وكلمة {**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**}يبيّنِها لك رسول الله ﷺ شهوداً يا مؤمن، على أنها تنطوي تحتها معان جمَّة، فهي تعرِّفنا أن الله تعالى "رب" وأن هذه الربوبية عامة، فهو سبحانه رب العالمين، ثم هي تعرِّفنا أيضاً بأنه تعالى هو المسيِّر لأمور هذا الكون، وهي تعرِّفنا أخيراً بأنه يُحمد على تسييره، وأن الحمد مقصور عليه، فله الحمد وحده.

وبصورة عامة إنما تعرِّفنا بأن ربّ العالمين المسيِّر لما في الكون، من إنسان وحيوان وأنعام أو أي شيء، إنما يُحمد على كل حال، وأن كل فعله وسائر ما يسوقه لمخلوقاته، فضل وإحسان وخير.

الرب:

هو المربِّي، مأخوذة من: ربَّى. وأصل الفعل ربا، بمعنى: زكا ونما، وكما تقول: ربا الزرع، أي: نما. وتشدِّد الباء فتقول: ربَّى فلان الغنمة، أي: خصَّها بالعناية، فجعلها بسبب هذه العناية تنمو وتستمر في الحياة، فأمدها بما يلزمها من مأكل منوَّع مغذٍّ،

وشرب موافق روي، وعني بإيوائها في مأوى خاص مهوًّى، وأسامها في الأرض، ترعى في الفلاة متعرضة لنور الشمس والهواء النقي. وبصورة عامة قدَّم لها سائر ما يتوقَّف عليه دوام وجودها وحياتها واستمرار نمائها.

فالتربية إذاً: تعني الإمداد بما يلزم لدوام الحياة، واستمرار الوجود والنماء، وقد أصبح من السهل علينا أن ندرك معنى التربية لنبتة أو لزرع، ومعنى تربية طفل أو شخص، ومن اليسير علينا أن ندرك المراد من قولنا المعلم مربٍّ، وأن ندرك مجال تربيته، والنواحي التي يخصُّها بعنايته، وربُّ البيت ورب العمل.

وكذلك الأمر بالنسبة للمرشد والرسول ﷺ ، وبصورة أعم نستطيع أن ندرك طرفاً من تربية الله تعالى لهذا الإنسان وعنايته به وإمداده إيَّاه بما يلزم، منذ أن كان جنيناً في بطن أمه، حتى أضحى طفلاً رضيعاً، وما كان يرافق هذه الطفولة من العناية الإلّهية في تسخير الأم، إذ شحن تعالى قلبها بالعطف والحنان، إلى أن أصبح إنساناً سوياً ورجلاً كاملاً، ثم دوام هذه التربية واستمرارها عليه، حتى آخر لحظة من لحظاته.

ويضيق بنا المجال ولا تتَّسع بطون الكتب لشرح معنى كلمة (رب)...

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نجد لهذه الكلمة نهاية، غير أن ذلك لا يمنعنا من التقريب لذهن القارئ من معناها بعض الشيء، فلعلَّه إذا هو فكَّر أدرك طرفاً من هذه التربية، ووجد نفسه على شاطئ بحر خضم منها، لا يُدرك لها قراراً ولا تُحدُّ بحدٍّ، وهنالك يعظِّم المربِّي جلَّ شأنه ويقدِّره، وتخشع نفسه له، وتعلم أن الحمد كله له، وتشهد ذلك. فتهيم نفس المصلي به تعالى هياماً، وتسري إليه تعالى، فتشتق منه نوراً، ترى به الحقائق والحِكَم.

أرأيت تربيتك في بطن أمك، إذ جعلك تعالى في مستودع محفوظ من كل أذى وضرر ذي حرارة مناسبة وجو معتدل، يأتيك رزقك رَغَداً بأصول ونظام تحار له

العقول، وأنت تسبح في الماء، لا يضرك شيء من الأشياء، يُساق لك الدم صافياً نقياً، والغذاء كاملاً، وتُخلَق خلْقاً من بعد خلْق، حتى تغدو إنساناً سوياً.

فمن الذي كان يعتني بتربيتك آنذاك؟. أهي أمك أم أبوك؟. وهل يدرك الأب أو الأم أن في بطنها ذكر أم أنثى؟!... ومن هو المربِّي لك في ذلك الطَوْر؟. أليس هو الله تعالى صاحب العطف والحنان؟.

هل جلست تفكِّر بعنايته بك في هذه الفترة من حياتك؟.

وهل جلب انتباهك هذا الدور؟.

وإذا نزلت إلى هذه الدنيا وواجَهتْ عيناك النور، من هو الذي كان يُحضِّر لك اللبن سائغاً رويّاً في ثديي أمِّك؟. أهي أمك أم أبوك أم أحد من الناس؟!.

من هو الذي كان يبدِّل لك معاييره يوماً من بعد يوم؟. أم من هذا الذي أودع في قلب أمك العطف عليك والحنان، وجعلها تحزن لحزنك، وتفرح لفرحك، وتمرض لمرضك، وترضى أن تضحِّي براحتها راغبة في سبيل تأمين راحتك؟.

والآن وقد بلغت أشُدّك وأصبحت رجلاً، هل فكَّرت في من يقدِّم لك صنوفاً وألواناً وأنواعاً متنوعة من الأغذية والثمار؟. هل يستطيع مخلوق أيّاً كان أن يصنع ثمرةً واحدة بمصانعه، زيتونةً كانت أم برتقالة؟!. ومن ينزِّل لك من السماء الثلوج والأمطار؟. ومن الذي سَلَكَ لك في الأرض الينابيع والأنهار[٣٩]؟.

ومن الذي جعل لك الأرض كرة سابحة في الفضاء تدور حول نفسها، فيتولَّد في ذلك الليل والنهار؟. من يحملها ويحمل الكون ويسيِّره؟. هل يستطيع مخلوق فعل ذلك؟. أم هو الله ربك، وربُّ العالمين؟!.

---

٣٩ - انظر كتاب (مصادر مياه الينابيع في العالم). "النظرية العلمية الجبَّارة" للعلّامة محمد أمين شيخو.

وهل نظرت إلى الشمس وما يأتيك منها من حرارة وضياء وإشعاع، والقمر وما هو عليه من نظام تتعرَّف به إلى السنين والحساب, والهواء وما فيه من غازات نافعة بنسب معيَّنة، لا تستطيع أن تظل بدونها ساعة من نهار؟. من الذي شحن الهواء بهذه الغازات الضرورية للحياة؟. ومن الذي جعل الليل والنهار خِلْفةً، وبهذا القدر المناسب للراحة والحياة؟. من المرتِّب، من المنظِّم؟. أتسمع ممن سواه وإليه مصيرك بعد الفراق لأبد الآباد؟!...

من الذي خلق لك البحار وملأها بالماء, وجعل ماءها ملحاً أُجاجاً لا يفسد؟. هل أحد من المخلوقات؟. انظر فضله عليك ورحمته بك، لِمَ لا تفكر بذلك!. فكر لتكسب وتغدو عالماً..

ما هذه الرياح المستمرة في طوافها بنظام وقوانين على سطح الأرض، تأتي بالخير وتبشِّر بالمطر وتجدِّد الهواء؟. هل أتت بها دول شرقية أم غربية، أم يدُ خالقها العظيم؟!. انهض بنفسك مفكِّراً وأرها وجوده تعالى من ثنايا خلْقه وصنعه، قبل انتهاء الأجل وفراق الدنيا ومن فيها ليسعدك ويهديك وبجناته يؤويك.

ما هذه المعادن المودوعة في باطن الأرض؟. ما هذه الأتربة وما هذه الأملاح؟. من الذي ألقى في الأرض من كل زوج اثنين من الكائنات، وبثَّ فيها من كل دابة؟. أليس ذلك كله ضرورياً للحياة؟. أليس ذلك الممد المربِّي هو الله؟. هلا فكَّرت به وطلبت الوصول إليه شكراً لفضله؟.

وهل فكَّرت بشيء من عنايته بك، وعرفت معنى كلمة (الرب).. الذي يربِّيك في هذه الحياة؟!.

وأوجز القول وأنتقل إلى كلمة:

{الْعَالَمِينَ}:

أن كلمة (الْعَالَمِينَ).. هي جمع عَالَم، والعالم: تشمل المخلوقات ذوات الصفات الواحدة التي تشترك بعضها مع بعض في هذه الحياة: فالنمل عالم، والطير عالم، والأسماك في البحار عالم، والنباتات عالم، والمواشي عالم، والإنسان عالم، والنجوم السابحات في الفضاء عالم، والجراثيم عالم، حتى أن عالم الطير يضم عوالم عديدة، وكذلك عالم الأسماك يشتمل على أنواع شتّى وعوالم متنوعة.

وفي الإنسان عوالم كثيرة، من كريات بيض وكريات حمر، ولكل من الكريات أنواع وأشكال ووظائف وأعمال، وتوالد وتكاثر وغذاء ووسط مناسب للحياة، وفي الإنسان ما فيه من عوالم لا تُحصى، وما يعلم بها إلَّا الله القائم عليها بإمدادها بالحياة والنماء والبقاء، لتؤتي خيرها. ولو أنك دقَّقت وفكَّرت بعض الشيء. لشاهدت ورأيت ولطأطأتْ نفسُك مقرّةً بجلال الله وعظمته وقدرته، ولرأيت أن الله تعالى واسع عليم، وأنه سبحانه العزيز الحكيم، والرؤوف الرحيم. فهو المتكفل بها، بخلقها وإمدادها وتسييرها وحده، ولا أحداً سواه، فالتفت بنفسك إليه، تحظَ بخيرات دائمية أبدية متنامية.

وهكذا ففي هذا الكون الخضم عوالم، وفي كل شيء عوالم لا يعلم بعددها إلا خالقها وموجدها، ولكل عالم من هذه العوالم شرائط للحياة، وإمداد خاص بها، وأصول للتوالد والتكاثر، وأنواع منوَّعة من الأغذية. وهذه العوالم التي على سطح الأرض ذات مقادير وأعداد ونسب معيَّنة، وقوانين للحياة:

{...وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ}: ما يلزم الكون، ما يلزم كل إنسان، عدد الذكور والإناث، المقادير، الحجوم، كله عنده بمقدار، وكل إنسان وله وقت معلوم. **{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}**[٤٠]ما في نفسك وما هو ظاهر، الغيب والشهادة، معلومان عنده، مهما استعظمت، هو أكبر وأعلى، ماله تعالى حدّ.

---

٤٠ – سورة الرعد: الآية (٩).

وهذا الرب الممد لهذه العوالم كلها، القائم عليها والمتكفِّل برزقها والممد لها بالحياة، هو الله تعالى وحده، رب العالمين.

فلو طلبته وصدقت بطلبه لوجدته. ولشاهدت أسماءه الحسنى عليك وحبَّه الكامل لك وعطفه الشامل، ولهمت به تعالى، ولنلت فوق نوال العالمين.

المؤمن الكافر كلاهما... يحمدان الله بالآخرة بعد كشف الغطاء

فالابن الرشيد العاقل حينما ينضج ويكبر، يحمد كل ما قام به والده بسن صغره تجاهه، من تصرُّفات على اختلاف وجوهها، من عطاء أو منع، شدة أو رحمة، غضب أو رضى، أي يقرُّ نفسياً بحسن هذه التصرُّفات، ويحترم تلك المعاملة التي عامله بها أبوه حتى رفع من سويته العلمية والخُلقية.

فأنا حينما أرى أن المرض قد زال عني وخلصت منه، وحينما أرجع إلى معالجة الطبيب وعنايته بي حتى خلَّصني مما كنت أشكو منه، وشعرت بالصحة قد عادت لي من بعد ألم ومرض، أجد في نفسي تقديراً واعترافاً بفضل هذا الطبيب وأرى جميع تصرُّفاته ومعالجاته إيَّاي مهما كان نوعها. إنما كانت حسنة إذ أن غاياته جميعها كانت شفائي وخلاصي مما كان بي، فأرى الخير فيما وصف لي من الأدوية الكريهة المرّة، وفي تلك المعالجات الشديدة حتى أنني أرى الخير بما قام به هذا الطبيب من جرحٍ جرحني به، وألم أثاره في بعض نواحي جسمي، تبيَّن لي الآن عواقب ذلك كله، وقد عادت عليَّ بالخير والشفاء والسعادة، وكذلك الطالب حينما يصبح رجلاً وجيهاً في المجتمع، ذا منصب رفيع في عمله، ومعرفة عالية بين ذويه، وعندما يرى شأنه العالي ومكانته السامية التي أصبح عليها، هنالك يحمد معلِّمه، أي: يرى الخير فيما قام به تجاهه من تصرُّفات، مهما كان نوعها ومهما كانت صورتها، حتى أنَّه ليقرّ معترفاً في قرارة نفسه، بأنَّ ضَرْب معلِّمه ومعاقبته

وحرمانه إيَّاه في بعض الأحيان من الطعام، وشدته عليه، إنما كانت كلُّها خيراً، وهي لا تختلف عنده في شيء عن مدحه ومكافأته وثنائه عليه.

التضييق والحرمان كلاهما عند هذا الطالب سيَّان في الخير، إذ لولاهما لما استقامت نفسه، ولما كدَّت وجدَّت في سبيل التعليم، وبالتالي لما نالت تلك المنزلة الرفيعة، ولما بلغت ذلك الشأن العالي في المجتمع، فهو يحمد معلِّمه على ما قام به تجاهه من تصرُّفات لأنها كلها خير وإحسان.

وكذلك بالنسبة للابن الرشيد مع أبيه، والمريد الصادق مع مرشده ودليله إلى الله، والمؤمن مع رسوله، والإنسان تجاه خالقه ومربِّيه، فهذا الإنسان حينما يرى مثلاً أن هذه الأمراض التي ساقها الله تعالى له في الحياة، وأن الفقر والمصائب والهموم والكروب والشدائد في الحروب، إنما كانت سبباً في توبته إلى الله، وخلاص نفسه وتطهيرها مما بها من العلل والأمراض، تراه حينما يشعر بالصحة النفسية، يحمد الله تعالى على ما تفضَّل به عليه، ويرى الخير في جميع تلك المعاملات التي عامله بها تعالى، مهما كانت شديدة، ومهما كانت مؤلمة، بل يعلم أنها استحقاق وقع عليه، بسبب ما كسبت يداه من أعمال لولاها ما جاءته شدة، ولولاها لما تطهَّرت نفسه من الأدران، ولما تمحَّصَ ما في قلبه، ولما سلك في طريق الحق وابتعد عن طرق الغواية والهلاك، بل لكان ألمه النفسي، ولكانت دناءته وانحطاطه، أشدّ عليه من جميع تلك الشدائد، من مرض أو فقر، أو خوف وفزع وضيق.

ذاك كله يراه المؤمن في الحياة الدنيا، فيحمد الله تعالى عليه في دنياه قبل موته، فإذا كانت الآخرة، وكانت الحياة الطيبة، وأضحى هذا المؤمن في جنان الخلد يستغرق في النعيم، فهنالك يحمد الله تعالى حمداً لا نهاية له، حمداً لا يُوافي نِعَمَ الله ولا يُكافئ مزيده، لأن نعمه تعالى لا تتناهى، وكل حمدٍ مهما عَظُمَ، ففضله تعالى أعظم، ونعمته سبحانه أكبر وأكبر.

أما الكافر، فيحمد الله تعالى في الآخرة، يحمده على أن ساق له في الدنيا ما ساق من شدائد، كلها بسبب ما قدَّمت يداه وكانت في مصلحته ولخيره، ويحمده على أن خلق له النار، لأنه يرى أن احتراق جسده بها وشديد إيلامها، أهون عليه مما يخالج نفسه ويلازمها من حسرة على ما فرَّط في الحياة الدنيا، ومن خزي ودناءة وانحطاط ماثل أمامه، بسبب أعماله التي قدَّمها، حتى أنه ليشتد في طلب النار ويتطلَّبها، حتى يستجيب له ربُّه، فإذا ما صار إلى النار وذاق عذاب حريقها، وكان ذلك الألم الجسدي من عذاب الحريق، سبباً في غيبته عن آلامه النفسيَّة المرهقة التي لا تُطاق، وسبباً في احتجابه عن عاره وخزيه ودناءته وحسراته، فهنالك يحمد الله تعالى على استجابته له، وأمره تعالى بإيوائه هذا المثوى، ليخلص بهذه النار، مما يُقاسي من أهوال نفسه وآلامها الكبرى. وفي الحديث الشريف:

«إن العَارَ ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا ربِّ لإرسالُكَ بي إلى النارِ أيسرُ عليَّ ممَّا ألقى، وإنه ليعْلَمُ ما فيها من شِدَّةِ العذاب»[٤١].

وهكذا فأهل الجنَّة يحمدون الله تعالى، لِمَا يتفضَّل عليهم من فيوضات تجلِّياته العلى ونعمه، وأهل النار يحمدونه لأنه خيَّرهم فاختاروا الأدنى وأصرُّوا، فما أجبرهم وما منعهم، بل منحهم كامل شهواتهم التي ابتغوها بدنياهم، وما طلبوه أعطاهم بالتمام وما ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم ومرَّضوها، وذاك العلاج هو المناسب لها، وكل الخلْق يومئذٍ يرونَ فضل الله تعالى عليهم، وعظيم إحسانه إليهم، قال تعالى:

{...وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٤٢]

ولا تظننَّ أن معنى كلمة (الْحَمْدُ للّهِ).. تقف بنا عند هذا الحد الذي بيَّناه، فما ذاك من معناها إلَّا طرف يسير، وهنالك معانٍ تنطوي تحت هذه الكلمة لا يعلمها إلّا الله،

---

٤١ - الجامع الصغير: /٢٠٥٩/ (ك). عن جابر (ح)..

٤٢ – سورة يونس: الآية (١٠)

فما من واقع يقع، ولا حادث يحدث، ولا حال يحول، ولا همّ ولا غم ينزل، ولا مرضٍ أو فقر وشدة تلمّ، إلا وهي من الله تعالى فضل ونعمة وإحسان، تسوقها وتنزلها يد الرحمن الرحيم، فهو تعالى دائم العناية بالخلْق، باسط يده على عباده بالحنان والرحمة، يقلّبهم من يسر إلى عسر، ومن ضيق إلى فرج، ومن فقر إلى غنى، ومن غنى إلى فقر وفاقة، ومن صحة إلى مرض، ومن مرض إلى صحة، يحوِّل من حال إلى حال، وكل ذلك منه تعالى تمحيص وتنقية لهذه النفس، وكله منه تعالى مداواة وتطهير وتصفية، وكل ذلك فضل ورحمة وإحسان، فلو كُشف الغطاء لما اخترت غير ما اختاره لك الله، ولرضيت بالواقع. قال تعالى:

{...وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[٤٣]"وفي الصبر على ما تكره خير كثير".

قال تعالى:

{...وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥).. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ (١٥٦).. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[٤٤]

بهذا الصبر الذي صبروه، واعترافهم برحمة الله، طهرت نفوسهم، فينزل التجلي الإلّهي عليهم، فيهتدون للحق، إذ يحصل لهم نور من الله، ويكونون أهلاً لدخول الجنّة.

فالمؤمن إذا أصابته المصيبة، وحاقت به الشدة صبر واستسلم، لأنه يعلم أن ذلك بسبب أخطائه وأعماله المخالفة، ويعلم أن يد الحنَّان المنَّان، إنما أنزلت به ما أنزلت من شدة، فكيف لا يرضى وكيف لا يستسلم! إنه يرضى ويستسلم لأنه يعلم رحمة الله، ويعلم حنان الله ويرى عناية الله، عنايته تعالى التي خلقت ما في الأرض وما

---

٤٣ – سورة البقرة: الآية (٢١٦)

٤٤ – سورة البقرة: الآية (١٥٥–١٥٧).

في السموات لهذا الإنسان، عنايته تعالى التي سخَّرت الشمس والقمر دائبين، وسخَّرت الليل والنهار، والأنهار والبحار، وخلقت من فواكه وأثمار، ونباتات وأزهار، وسهول وجبال، ومآكل ومشارب ولذائذ، خلقت كل ذلك وتخلق على الدوام، فضلاً ومنَّة ورعاية لهذا الإنسان، إنه يرى تلك العناية الإلٓهية المحيطة به، القائمة على هذا الكون كله، والمشرفة عليه كله، إنه يرى دوام العناية الإلٓهية عليه في الليل والنهار، وفي كل لحظة من اللحظات فلو انقطع إمداده تعالى عن العين لما أبصرت، وعن الإذن لصمَّت وما سمعت، وعن اللسان لتوقَّف وما نبس بكلمة، وعن الفكر لزال وما وعى، وعن القلب لسكت وما نبض نبضة، فالله الرحيم دوماً معك فروحك ممَّن؟. وبيد من؟. فهو الحي حياتك به، وهو القيوم قيامك وبقاؤك به تعالى، ودوماً نوره على قلبك، فلا إلٓه إلا الله.

يرى المؤمن عناية الله تعالى به ظاهراً وباطناً، فيستسلم لتصرُّفاته تعالى، فيغيّر ما بنفسه من طلبٍ سيّء أو خطأ، ويزول ما به من ضرّ، وينقلب عليه نعمة وخيرات، ويعلم أن تصرفاته تعالى، كلها خير وفضل ورحمة. ويحمده تعالى على كل حال.

على أن كلمة (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).. ليست فيما وردت عليه الآن في سورة الفاتحة اعترافاً من المصلِّي يعترف به، وإقراراً يقرُّه، بل إنما هي إعلام من رسول الله ﷺ.

فهذه الذات العليّة التي خلقتك وأوجدتك، والتي تشرف على شؤونك وتربِّيك، هذه الذات العليَّة التي تسيِّر جميع الكائنات، والتي يؤول إليها أمر كل شيء، هذه الذات هي حضرة الله ربّ العالمين والتي يبيِّن لك رسول الله ﷺ فيها أن الحمد لله رب العالمين جميعاً. إنها تُعرِّفك أن رب العالمين الذي شملت تربيته كل شيء، هو المسيِّر الذي بيده كل شيء، وإليه تؤول أمور كل شيء، هذا الرب الممدُّ والإلٓه المسيِّر، يُحمدُ على كل ما تراه وكل ما يجري في هذا الكون، من تسيير وتصرُّفات.

في كل يوم، وفي كلِّ صلاة، لا بل في كلِّ ركعة يتلو عليك رسول الله ﷺ عن لسان الله كلمة (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).. لتستقر هذه الكلمة في نفسك، ولتتبع معناها بالتفكير، ولتحمده تعالى حقّاً، فإذا أنت حمدته وعرفت حنانه، فقد توثَّقت الصلة بينك وبينه، وهنالك تدخل في النعيم، النعيم النفسي، وتتسامى نفسك وترقى من حالٍ إلى حالٍ أعلى، والصلاة معراج المؤمن، وتلك هي الغاية من الصلاة، ومن لم يقرأ آية الحمد فيعقلها بقلبه، ومن لم يتعرَّف إلى كلمة (الْحَمْدُ للهِ).. ومن لم يفقه معانيها ويدخل بها على الله، فلا صلاة له، وما هو من الصلاة في شيء إلا أجر حركات الصلاة، وهو أثر يسير لا يغني القلب.

الشدائد والمصائب وخيرها العميم هذا وقد يعرض لك سؤال من الأسئلة فتقول:

تبيَّن لي ممَّا سبق من شرح وبيان أنه لا يقع واقع في هذا الكون إلّا وقد أذن به الله وشاء، وأنه ما من حادث يحدث إلَّا انطوى على فضل ورحمة وإحسان، فكيف نحمد وكيف نؤوِّل على ضوء ما عرضتموه، جريمة القتل التي تقع على القتيل، فتذهب بحياته، وتحرم زوجه وبينه من عطفه ورعايته، وتسبِّب للقاتل الخزي والعار، وتزج به في السجون بالدنيا، وتُلقي به غداً في النار، وكذلك السرقة والزنا، وسائر أنواع الجرائم والتعديات, وهل وقوع ذلك كله وحدوثه تشمله كلمة (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)..؟. وهل نستطيع أن نعدَّ ذلك فضلاً ورحمة وعناية من الله بكلا الطرفين، القاتل والمقتول، والسارق والمسروق ماله، والزانية والزاني، والمعتدي والمُعتدَى عليه، وهل كل ذلك يُحمدُ تعالى عليه؟.

وجواباً على هذا السؤال وبوجه الاختصار أقول:

ما دام كل واقع في هذا الكون لا يقع إلَّا بعلم الله ومن بعد إذنه، فلا شك أن كلمة (الْحَمْدُ للهِ).. تشمل وبدون استثناء كل حادث وواقع، وله الحمد تعالى على كل حال. ونفصِّل ولا نطيل فنقول:

الإنسان في هذه الحياة أحد رجلين: كافر ومؤمن، حيّ وميِّت، أعمى وبصير، أصم وسميع، فإذا أعرض الإنسان عن آيات ربِّه، ولم يسلك طريق الإيمان التي شرعها الله تعالى وبيَّنها لعباده، أضحت نفسه في ظلمة وعمى.

فإذا رأى شهوة من الشهوات الخبيثة استحبَّها واستهواها، إذ لا نور له من الله يرى به حقيقتها، وما تزال هذه الشهوات تعتلج في نفسه ويستفحل أمرها حيناً بعد حين، حتى تملك عليه مشاعره، وتستولي على قلبه، وإنه ليصمِّم عليها ويعزم على فعلها، وما مثل هذا الإنسان والحالة هذه إلَّا كمثل امرئ سائر في وادٍ سحيق، اعترضته صخرة عظيمة سدَّت عليه طريقه: ذلك هو مثل الإنسان هذا بالنسبة لشهوته، إنها الصخرة العظيمة سدَّت عليه طريق الإيمان، فمهما ذكَّرته بآيات الله لا يتذكَّر، ومهما أوردت له من العبر والمواعظ، لا يتَّعظ ولا يعتبر، ومهما حذَّرته من العواقب وأنذرته بسوء المصير لا يحذر ولا يخاف، ولا بدَّ قبل كل شيء من إزالة هذه الصخرة المانعة التي تعترض طريقه. فإن أنت أزلتها، فقد انفتح الطريق إلى الإيمان وأمكن المضي والسير. ولذلك ورحمة من الله تعالى بهذا الإنسان الذي أصبح سجيناً وراء شهوته، وقد انسدَّ عليه بسببها طريق الإيمان، أنه يُطلقه فيقع فيما هو مصمِّم عليه ومشتهيه، وهنالك تخلص النفس مما كان مسيطراً عليها، وتخلو ساحتها مما كان شاغلاً لها ومالكاً عليها مشاعرها، وتزول هذه الصخرة التي كانت قد سدَّت عليها طريقها، ولا بدَّ للنفس بعد تحقيق هذه الشهوة وخروجها من ساحتها والراحة التي تعقب خروجها، لكي تسير في طريق الإيمان والحالة هذه لا بدَّ لها إذن من دافع يدفعها وسائق يسوقها، لذا يسلِّط الله تعالى على هذا الإنسان بعد وقوعه في شهوته،

صنوفاً من الشدائد والمصائب والبلاء، فإما المرض, وإما الهمُّ والغمُّ، والضيق والخوف، وإما الفقر والإعدام، وكل امرئ يسوق الله تعالى له الدواء المناسب، بحسب حاله وبحسب شهوته وجرمه، ويشتد البلاء على هذا الإنسان المجرم ويزداد في الشدّة، وما يزال به يضيّق عليه ويزيد في الضغط، حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، فلا يجد ملجأً ولا منجاً من الله إلا إليه. وهنالك تستسلم النفس إلى الله، وتعلم أن ما أصابها من الشدة والبلاء إن هو إلا بما كسبت يداها، وبسبب ما وقعت فيه من إجرام، وتصْدُق بالتوبة الصادقة، وما أسرع ما تنكشف لها الحقيقة أن لا إلّه إلا الله، وأن الفعل كله بيد الله، وأن الشدة التي حاقت بها إن هي إلَّا محض رحمة وفضل وإحسان من الله، فتشكر الله على البلاء، وتشكره على ما ساق لها من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، وترى أن الجريمة التي نفَّذتها، وأن البلاء الذي حلَّ بها من بعد، والعقوبة التي ذاقتها، كلها عوامل ووسائل ساعدتها على السير في طريق الحق وفي طريق الإيمان. ولو أنها حُبسَت وراء الصخرة العظيمة (الشهوة)...، ولو أنها لم يُسلط عليها من بعد ذلك البلاء والشدّة، لظلَّت محرومة ممنوعة من الخير، والحمد لله على ما أصابها، وله الحمد على كل حال، ولا يُحمد على مكروه سواه.

وكذلك هو الحال النفسي للقاتل عندما تُنفَّذ فيه عقوبة الإعدام، قال تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...}**: يرى أن في ذلك علاجاً لنفسه لعله يقبل فيطهر. وفي القصاص حياة الناس والبشرية يعيشون بسعادة إن طبقوا تعاليم الله: **{...يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[٤٥]

١- وفي اتخاذ الحكم والالتجاء الذي يحصل له عند الموت، تشفى نفسه من عللها، وتتم له الحياة القلبية في الدار الآخرة الأبدية من جهة.

---

٤٥ – سورة البقرة: الآية (١٧٩)

٢- ومن جهة أُخرى فبتطبيق هذا الحكم الشديد يكون عظة للمجتمع من بعده، فلا يتجرأ أحدٌ على قتل أحد، لأنه يعلم أنه بقتله للغير سوف يقتل هو، فيكفّ المجتمع عن القتل، ويكون ذلك بصحيفته ويكون المجتمع في أمان، ذلك يضاف إلى صحيفته، وحال السارق في مجتمع إسلامي متكافل متضامن، لا يُحرم فيه فرد من كفاية، وكذا هو مؤمَّنٌ له الكفاف ومع ذلك يسرق دون حاجة، إنها علَّة نفسية شريرة، لا بدَّ من بتر العلَّة التي قد تُخْسِره دنياه وآخرته، بقطع يده لشفاء نفسه. حينما تقطع يده ويذوق مزيد الآلام الممضّة، يتوب عن علَّته توبة نصوحة، ويصلح عندها أن يكون من أهل الجنّة **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً..}**[٤٦] ذلك هو حاله إن رجع للتفكير حال البلاء والشدّة، إنه ينتقل من الباطل إلى الحق، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الموت إلى الحياة، فيغدو سميعاً بصيراً، ويموت وهو يشكر الله ويحمده، وفي الحديث الشريف وبالآخرة:

«يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان»[٤٧]

كما بالآية: **{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً}**. [٤٨]

أما إذا خرجت الشهوة، وحاق من بعدها البلاء والشدّة، وظل هذا التفكير خامداً، فلا بدَّ والحالة هذه، من شدّة أعظم وبلاء أكبر.

---

٤٦ - سورة الزمر: الآية (٥٣).

٤٧ - مسند الإمام أحمد: ج٣، ص١١٦.

٤٨ - سورة مريم: الآية (٧٢)

قال تعالى: {..**وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ..**}[٤٩] وإن لم تفد هذه العلاجات كلها، فالمصير حتماً إلى النار، ونعوذ بالله من مصير أهل النار.

وحيث أني شرحت لك من قبل ما يحل بأهل الجرائم في النار يوم القيامة، وبيَّنت لك أنهم يومئذٍ يرتمون بالنار ليخلصوا من خزيهم وعارهم، وإنهم إذ ذاك يحمدون الله تعالى على ما يداويهم به فيها، فلا حاجة هنا للتفصيل عن أحوالهم بها.

تلك هي رحمة الله تعالى ونعمته وفضله ومنَّته على المعرضين من بني الإنسان، تنبت الشهوة المحرَّمة في أنفسهم بسبب إعراضهم عن الله، ويُزيِّن الله تعالى لهم أعمالهم، فيقتل القاتل، ويسرق السارق، ويزني الزاني، ويجرم المجرم، ثم تكون الشدّة والمداواة، وتخلص تلك الأنفس، إن هي رجعت إلى الله ممَّا كان بها من جرثوم الشهوات، وتدخل في حصن الإيمان فالتقوى، وهي الاستنارة الدائمية بنور الله بمعيّة رسول الله ﷺ ، وتحمد الله على ما عالجها به من علاجات حتى وصلت إلى الأمن والأمان، والسمو والخير العميم.

أما بالنسبة للمقتول وزوجه وبنيه، والمسروق ماله، والمعتدى عليه فلا تظننَّ أن الذي اعتلجت في نفسه جريمة القتل أو السرقة أو الزنا والتعدي، يستطيع أن يسرق أو يعتدي على أي إنسان أراد. فالله سبحانه هو المهيمن والمشرف، وهو الحكيم العليم.

قال تعالى:

{... **مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**}[٥٠] فما من شيءٍ إلا وسيره بالله، ولا يسوق شيئاً من الأذى إلا على مستحقيه.

---

٤٩ - سورة الرعد: الآية (٣١)

٥٠ - سورة هود: الآية (٥٦)

فإذا انتهى أجل المرءِ وكان من الحكمة والخير أن يموت هذا الذي انتهى أجله قتلاً [٥١] وبهذه الصورة الرهيبة، ساق الله تعالى القاتل إليه، وجعل تنفيذ جريمته عليه، وهنالك تكون الشدّة التي تقع على المقتول ساعتئذٍ، دواءً لنفسه وعلاجاً، إذ أنه لا بدَّ أن يكون من قبل قاتلاً، فنال جزاءه، وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها، أو أن له من الأعمال السابقة ما اقتضى أن يكون موته بهذه الصورة، فباليقين بإعدامه تلتجئ نفسه وتنيب، وتطهر نفسه وتخلص ممَّا بها من أدران.

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٥٢]

وذلك ما كنّا فصَّلناه وبيَّنّاه في كتاب آخر[٥٣]. وكذلك الأمر بالنسبة للمسروق ماله، والمعتدى عليه، لا بدَّ أن كلاً منهما سبق أن ظلم، فأعاد الله عليه عمله: **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}**[٥٤]حتى أن الزاني لا يقع عمله وعدوانه ولا ينفذ شهوته، إلا على امرأة فاجرة خبثت نفسها وتطلَّبت هي أيضاً الفاحشة: **{الزَّانِي لَا يَنكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}**[٥٥]

---

٥١ - أما الشهداء بما حوت نفوسهم من نوايا عالية سامية مع وقوع ساعة أجلهم جعلها تعالى بالقتل شهادة عطاء عظيم لهم، فلهم بحث لسنا بصدده الآن.

٥٢ – سورة البقرة: الآية (١٧٩)

٥٣ - لطفاً انظر كتاب (مصادر مياه الينابيع في العالم). بحث /الإله موجود وليس هناك ظلم إطلاقاً/.

٥٤ – سورة الأنعام: الآية (١٢٩)

٥٥ – سورة النور: الآية (٣)

وهكذا فهذه الذات العلية قائمة على الكون بالقسط، وبيدها نواصي الخلق تسيِّرها بالحق، وما من واقع يقع إلا من بعد إذنه، ولله الحمد على كل ما يسوقه لعباده: {..وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨).. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}[٥٦]فإذا أردت ألا يعتدي معتد عليك، فاستقم كما أُمرت، وإن أنت شذذت وبغيت، فارتقب وقوع البلاء والشدة من بعد الرخاء **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**[٥٧]ومن زكّى نفسه وسلك بها طريق الإيمان، فقد أفلح وفاز ووقي شديد العلاجات، ومن أعرض عن طريق الإيمان ودس نفسه، فقد خسر وخاب، وعرَّض نفسه للتباب: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧).. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨).. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩).. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**[٥٨]وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

ويطول البحث ويطول إذا نحن أردنا أن نتابع لك الشرح من كلمة:
{الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}بفاتحة الكتاب، ويعجز البيان ويقصر اللسان، عن تبيان ما تتضمنه كل آية، لا بل كل كلمة من كلمات القرآن الكريم من معان، لأنه كلما أقبل الإنسان على خالقه أكثر وأكثر، تفتحت له معان سامية عليَّة جديدة من كلام الله تعالى، وكانت لديه أوسع وأظهر، ولا شك أن هذا ليس له حد ولا انتهاء. وجُلُّ ما نقوم به نحن الآن، أننا نضع بين يديك نماذج ومثلاً من معاني القرآن الكريم، لكن هذه النماذج والمثل لا تكسبك علماً ولا تصل بك إلى يقين، بل إنما تفيدك معرفة، وتريك طرفاً مما انطوت عليه آيات القرآن الكريم من معان، أما إذا أردت الوصول

---

٥٦ – سورة الرعد: الآية (٨–٩)

٥٧ – سورة الأنفال: الآية (٥٣)

٥٨ – سورة الشمس: الآية (٧–١٠)

إلى الحقيقة، واشتاقت نفسك للاستغراق في بحار علم اليقين، فعليك بسلوك طريق الإيمان، وهنالك تتكشف لك حقائق هذه المعاني، ويحصل لك بها العلم الصحيح، والنعيم المقيم، والعلو والسمو، وتراها بعين البصيرة، رؤية نفسية، أبلغ وأوضح من رؤيتك للأشياء بحاسة البصر، قال تعالى: **{أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ}**[٥٩]

لا القشور والمظاهر، فمن غدا طاهر القلب إذ صار من أهل الإيمان، هذا يعرف، وقلبه من العلوم الكبرى من حضرة الله ورسوله، هو يغرف.

على أنك قد تقول: أمن الممكن أن تعي نفسي هذه المعاني كلها التي أوردتموها من كلمة:

{الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}وقد ناهزت صفحات كثيرة بمجرد سماع هذه الآية، التي لا تستغرق تلاوتها إلا بضع ثوان؟. وهل أتصور أن أفقه ذلك كله في لحظة واحدة؟.

وجواباً على هذا أقول:

ليس الأمر موقوفاً على طول دراسة واستعراض معان، إنما المسألة مسألة صدق وتفكير واستقامة وإيمان وإقبال على الله، وإن الإنسان ليعجز عن الإحاطة بما في الصلاة من خير يناله فيها، وقد صرَّح تعالى بأن العلم والفضيلة والكمال الذي ينطبع في نفس المؤمن في ليلة القدر، وإن شئت فقل في تلك اللحظة بالصحبة النفسية مع رسول الله ﷺ في صلاة التراويح، خيرٌ مما يحصل عليه امرؤٌ قضى ألف شهر في الصيام والدراسة الجادة لاكتساب المعرفة: **{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ}**[٦٠]والعزير عليه السلام بعد أن أماته الله مائة عام: {..**قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ**

---

٥٩ – سورة الرعد: الآية (١٩)

٦٠ – سورة القدر: الآية (٣)

يَوْمٍ..}[61] وكذلك قال أهل الكهف الكرام مثل قوله، فمسألة الزمن بيده تعالى وهو خالق الزمان قال تعالى: **{وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}**[62] فإذا أنت أعددت نفسك قبل الشروع في الصلاة، وسلكت بها في طريق الإيمان وإن شئت فقل: إذا أنت آمنت حقاً بكلمة لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، ووقفت بنفسك وقلبك للصلاة متوجِّهاً إلى الكعبة تستمع إليه ﷺ يتلو عليك وأنت مقتد به كلمة: **{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** فهنالك يا مؤمن وحسب ارتباطك به ﷺ ، تنكشف لك هذه المعاني وأمثالها ما لا تحلم به من قبل، وما لا تحصل عليه بمئات السنين بجهدك الذاتي تحصل عليه بالصلاة في طرفة عين، فترى الكون كلَّه مشمولاً بعناية الله، سائراً بحمد الله تسيِّره يد الحنَّان المنَّان، وتعطي كل مخلوق أحسن شيء له، وما هو بالنسبة له محض الفضل والإحسان، ترى ذلك كلَّه في لحظة واحدة، ولنا في مثل سحرة فرعون حين توجهوا لسيدنا موسى عليه السلام سراجهم المنير، كم شاهدوا وكم رأوا فما عبؤوا بفرعون وصولته، وبكل تهديداته من تعذيب وتنكيل وتصليب، فخاطبوه بما شهدته نفوسهم من الحق غير عابئين:

{قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢).. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣).. إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى (٧٤).. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥).. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ

---

٦١ – سورة البقرة: الآية (٢٥٩)

٦٢ – سورة القمر: الآية (٥٠)

جَزَاء مَن تَزَكَّى}[٦٣]فمن أين جاؤوا بهذا البيان الذي بيَّنوه، وقد جيء بهم من المدائن المختلفة محضَرين؟!. وما سمعوا من سيدنا موسى عليه السلام بياناً ولا دلالة!. ولم يكن لهم به سابقة اجتماع!. إنه التعظيم والتقدير لعلمه عليه السلام، جعل نفوسهم ترتبط بنفسه المقبلة على الله، وهنالك شاهدوا ما شاهدوا من حقائق أسماء الله الحسنى بلَحظات.

إذن:

إنك في حال التقوى مع رسول الله ﷺ بالصلاة، تشهد نفسك هذه المعاني وأنت تستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقولها، كلما سمعتها في كل ركعة زدت شهوداً ورؤية لتلك المعاني التي انطوت عليها، فإذا أنت حامد لربك حقّاً، وإذا أنت متدرج في منازل الحمد يوماً بعد يوم، وصلاة تلو صلاة. عندها تغدو إنساناً حقّاً، بعروجك القلبي في منازل القرب، من رب الكمال والفضيلة والإحسان، وتتشرب الرحمة والعلم، وتنال العطف والحنان، وتأنس بالله تعالى ينبوع كل كمال، فيأنس بك كل مخلوق وإنسان، وتكسب الخيرات والمكرمات، وتفيضها على من حولك، مترفعاً عن كافة الشرور والأذى والإضرار لكافة المخلوقات.

هذا وبعد أن استمعت إلى رسول الله ﷺ ، يبلغك عن لسان الله تعالى كلمة:

{الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}فاستمع إليه ﷺ وهو يقول لك مبلغاً كلمة: **{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣)..}**

{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣)..}

وتريد كلمة: **{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}**أن تعرفك ببعض أسماء الله رب العالمين، الذي يُحمد على كل ما يجري في هذا الكون من تسيير، إنها تعرِّفك أن هذا الإلٓه المسيِّر الذي تؤول إليه أمور الكون كله، هذا الإلٓه المربي شملت تربيته سائر العالمين، والذي

---

٦٣ – سورة طه: الآية (٧٢–٧٦)

يُحمد على جميع ما يقع في الكون من تصرُّف وتسيير: هذا الإلّه المربي، هو الرحمن الرحيم.

والفرق بين هذين الاسمين هو أن اسم الرحمن، إنما يشير إلى أن الله تعالى رحمن، أي أنه ذو رحمة وحنان بشتى معاملاته لك مهما تلوّنت، كذا وسعت رحمته كل شيء، فما من مخلوق إلا وقد غمرته هذه الذات العلية بفيض من الرحمة، فهي ترعاه بحنانها حيثما حل وأنّى ارتحل وسار.

قال تعالى: {..**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**..}[٦٤] من تشديد ورخاء.

الرحمن: صيغة مبالغة لاسم الفاعل المشتق من فعل الرحمة على وزن فعَّال. يعرف القرآن من عرف أن الله مسير هذا الكون وما فيه بالرحمة، من شاهد صفة الرحمة من الله، انطبعت بقلبه معاني القرآن كما بالآية: {**الرَّحْمَنُ (١).. عَلَّمَ الْقُرْآنَ**}[٦٥] هنا: {..**وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ**..}[٦٦]

أرأيت إلى الأمهات يَرْعَين صغارهم بعطفهن، وتذوب قلوبهم رحمة، وتفيض نفوسهم حناناً يغمرن به أولادهن، فلو أن ما اشتملت عليه قلوب الأمهات كلهن من الرحمة والعطف والرأفة والحنان، لو أن ذلك كله جُمع بعضه إلى بعض، ثم ضاعفته ملايين الملايين من المرات، لما بلغ ذرَّة واحدة من رحمته تعالى التي لديه عليك، لا بل على أي مخلوق من المخلوقات، وقد سخَّر تعالى المخلوقات والأنعام لك، فما أرفع منزلتك عند الله وأنت لا تدري!...

فما من مخلوق إلا وهو مغمور بحنان إلهي ورأفة ورحمة لا حدَّ لها، وما ذلك كله إلا أثر من آثار اسمه تعالى (الرَّحْمنِ)...

---

٦٤ – سورة الأعراف: الآية (١٥٦).

٦٥ – سورة الرحمن: الآية (١-٢)

٦٦ – سورة البقرة: الآية (٢٨٢)

تضع نبتة في أصيص[٦٧]، أو تغرس غرسة، أو تلصق رقعة تطعيم في شجرة، فإذا ما نعشت النبتة، وأنجبت الغرسة، وبرعمت الرقعة، غمرتها نفسك بالرعاية، وأحاط بها قلبك بفيض من العطف والعناية، تتألم ألماً كبيراً ممن يلمسها بسوء أو أذى، ذلك شعورك نحو النبتة أو الغرسة، وأعظم منه شعور الأم والأب نحو صغيرهما، يتبعانه بنظرهما أينما سار، ويرعيانه بعطفهما حيثما كان، يفرحان لفرحه، ويحزنان لحزنه، ويصيبهما الهم والغم من أجله، وقد يحل بهما المرض لمرضه، وما ذاك كله إلا أثر من آثار حنانهما وعطفهما، مع أن الأم والأب ما خلقا صغيرهما وما أبدعاه صنعاً بيديهما، بل ربياه صغيراً ورعياه، فما بالك بحنان تلك الذات العلية التي خلقتك بيدها، وخلقت لك السمع والبصر والذوق وفطرتك، وما هي يا ترى نسبة حنانها عليك، وما هو مبلغ رحمتها بك، أيقاس ذلك برحمة أم أو أب؟. أليست رحمة كافة الأمهات أو الآباء للبشر وللأنعام والطيور والحيوانات كلها من الله، بل هي ذرَّات من رحمة الرحمن؟. وهل تقسو تلك الذات العلية عليك؟. وما خلقت الكون كله إلا من أجلك، وتأميناً لراحتك وسعادتك.

أتظن أن المريض يمرض، وأن الغني يفتقر، وأن الهم والغم ينزل، وأن المصائب والمكاره تلم، وأن ذلك كله يحل وتلك الذات العلية، "الحضرة الإلَهية" في هذه الساعات العصيبة قد تحولت رحمتها عن هؤلاء ونقصت بعض الشيء عن هذا المخلوق؟!. لا... لا، كل ذلك لم يكن، والرحمة الإلَهية هيَ هيَ، لا تتحول ولا تنفصل، لكن الله تعالى يعامل كلاً بما يناسب، ويسوق له من العلاجات ما يلزم، وحسبك أن تنظر إلى معاملة الأم والأب لطفلهما حينما يمرض، إنهما يشددان عليه في تطبيق ما يلزمه من حمية وعلاج، وما يشددان عليه هذا التشديد، إلا لفرط رحمتهما به، وشديد حنانهما عليه.

---

٦٧ - أصيص: إناء تزرع فيه الرياحين

يشددان عليه ليدفعا عنه ما ألمَّ به من مرض، وينقلاه من حالِ التعاسة والشقاء، إلى السعادة والهناء. وحسبك أن تنظر في هذا، وهو تعالى من رحمته، وضع الرحمة والحنان بقلبهما عليك، لا على سواك من أطفال الغير، لتدرك طرفاً من رحمة الله تعالى بك حينما يسوق ما يسوق، من شدائد وآلام. إنه يسوق لك ذلك، دواءً لنفسك، وعلاجاً لما بها من علل وأدران، وما ذلك كله إلا أثر من آثار رحمته تعالى بك وحنانه عليك، فغيِّر ما بنفسك من سوء واستقم، يغيّر اللهُ عليك. وهكذا فالله تعالى باسمه الرحمن، يغمر الكون كله، من أصغر مخلوق إلى أعظم كائن في الحياة يغمرهم جميعاً برحمته، فما ينفك مشرفاً عليهم باسم (الرَّحْمنِ).. في ليلٍ أو نهار، في عسر أو يسر، في دنيا أو آخرة، في جنة أو نار.

لبعض التقريب

إن كل ما قدمته لك عن اسمه تعالى الرحمن إن هو إلا تعريف بطرف يسير من رحمته تعالى بخلقه، وسأضرب لك مثلاً يقرِّب لك الحقيقة أيضاً بعض التقريب، وإن كانت الحقيقة أبعد من أن تنال بمثال، بل يلزم أن تُشهد شهوداً ليتيقَّن الإنسان، ولا يتم ذلك إلا بالإيمان.

انظر إلى الشمس ترسل بأشعتها إلى هذه الأرض وما عليها من سهول وجبال، من جزر وبحار، من نباتات وأشجار.

ثم انظر إلى شجرة واحدة، لا بل إلى ورقة من أوراقها وقد غمرتها الشمس بأشعتها، ترى ما مقدار ما اكتسبت هذه الورقة الواحدة من أشعة الشمس؟. وما هي نسبة ذلك إلى الشمس ذاتها؟.

كم في الكون من أشياء، وكم فيه من أشجار، وكم فيه من أوراق؟. كل شجرة لا بل كل ورقة تنال من إشعاع الشمس حظاً يسيراً.

وعطاء الشمس أعظم بكثير مما نالته شجرة، وعطاء الشمس أعظم بكثير مما نالته ورقة، ولعمري ذلك جزء يسير لا يقارن.

وما ضربت لك هذا المثال إلا لأعرِّفك بما نالته كلُّ أمٍّ من الله تعالى، من قدر يسير من رحمة.

ورحمته جل جلاله أعظمُ مما عرَّفتك به عن طريق هذا المثال بما لا يقدَّر وما لا يمكن أن يتصوره إنسان، وحسبك أن تُقبل على الله لتدرك طرفاً من رحمته تعالى بخلقه، وتذوق ذلك ذوقاً.. والشهود بعدها أعظم فبه اليقين بربِّ اليقين.. وليس البيان كالعيان.

الرحيم:

والآن، أنتقل بك إلى الكلام عن اسمه تعالى (الرحيم)...

يتبيّن لنا مما بيّنا من بيان وأمثلة، طرف يسير من بالغ ما يغمر تعالى عباده به من رحمة وحنان، وقارنا ذلك وإن كان ذلك لا يقارن برحمة الأب والأم، (ولله المثل الأعلى)..، ووضحنا بعض التوضيح.

بالله ما يُجدي الطفل ما في قلب أبيه وأمه نحوه من عاطفة ورحمة وحنان، إذا مرض هذا الابن وكانا في قرية نائية، وليس لديهما من وسائل النقل ما يمكنهما من أن يذهبا به إلى الطبيب يفحصه ويعالجه ويداويه؟. وما يفيد الطفل من رحمة أمه إذا هو سقط على الأرض وكانت الأم مريضةً مغلولة اليدين، لا تستطيع أن تنقذه مما هو فيه؟.

وما يغني عنه ما في قلب أمه من رحمة بالغة إذا جاع وكانت هذه الأم مريضة مدنَّفة تفتقد اللبن في ثدييها، ويبكي الطفل تألماً من جوعه، وتبكي الأم حناناً ورحمة، ولا حيلة لها في دفع غائلة الجوع عنه؟.

هذه أمثلة، عدِّد منها ما شئت، لتعلم أن الرحمة وأن العاطفة لا تكفي، إذا لم يدعمها التنفيذ بالإمداد، وإنقاذ من تتحرك في قلبها الرحمة عليه، وتخليصاً مما هو واقع به ومُستولٍ عليه.

نعم قد تقع الأم في أمثال هذه الظروف فلا تُحدث رحمتها شيئاً، ومن هنا نستطيع أن ندرك طرفاً من اسمه تعالى الرحيم وإمداده الذي يرى حاجة المخلوق وما يتطلبه وضعه، وما تقتضيه سعادته، فيسعفه بما يلزمه وما هو بحاجة إليه.

فباسمه تعالى الرحيم وإمداده، ترسل لك الشمس أشعتها فتدفأ، وتتبخر مياه البحار ويجود عليك بالسحب وبالأمطار، ويتعاقب عليك الليل والنهار، تستريح ليلاً من التعب، وتبتغي في النهار من فضله تعالى، وباسمه تعالى الرحيم ورحمته: إمداده وأمره للأرض لتنبت لك ما تنبت، من فواكه منوَّعة وخضار، وحبوب مختلفة وأثمار.

وباسمه تعالى الرحيم، خلق لك الأنعام وربَّاها لك، فيها دفء ومنافع كثيرة، والخيل والبغال والحمير لتركبها وزينة. وباسمه تعالى الرحيم، خلق لك الأم ترعاك وتربيك، وتقدم لك ما تقدم بالتعاون مع أبيك، والحقيقة كل الحقيقة، أن الله تعالى هو المرسل لك الأشعة من ثنايا الشمس، وهو المسيِّر المقلب للكرة الأرضية، فهو منشئ الليل والنهار، وهو ممد لك الأرض بالبذور والحبوب وخالقها، ويرفدها لك بالحيوينات، وهو صانع الحليب لك في بطون الأنعام. كذا حليب الأمهات لأبنائهن، ولا حول ولا قوة إلا منه تعالى، رحمة وحناناً، ولا إلّه سواه، وباسمه الرحيم، نظم لك هذا المجتمع الإنساني، يتعاون أعضاؤه على تقديم ما أنت بحاجة إليه، وباسمه تعالى الرحيم، يداويك نفسياً، ويسوق لك من العلاجات المعنوية، ما يسمو بنفسك ويرقِّيك، وباسمه الرحيم، جعل لك هذه الدنيا مجال عمل وسعي، تجدُّ وتسعى، لتكسب غداً ما أعده لك في جنات النعيم. وأرسل لك رسلاً وأنزل عليهم شرائع لتهتدي بها، أما إذا شذ

هذا الإنسان وطغى، وآثر الحياة الدنيا وغدا مريض القلب، فقد أعدَّ له تعالى مشفى، وأعدَّ له فيها سعيراً، رحمةً به وعلاجاً، فهو به رحمن.

ويكفيك أن ترجع يوماً إلى ما كنا شرحناه في كلمة الحمد لله رب العالمين، لتدرك رحمته تعالى بعباده حتى في النار وحريقها، ولو أن المجرم جاء في الآخرة يصيح متألماً مما كسبته يداه ويستغيث مستصرخاً، ولم يهيئ الله له ناراً لتسكين آلامه النفسية الرهيبة التي لا تطاق كمشفى لعلاجه، لما كان تعالى به رحماناً رحيماً، وهكذا، فالله تعالى رحمن رحيم، فهو تعالى ذاته رحيم، وهو تعالى في معاملاته لمخلوقاته رحمن.

فالمصائب والشدائد، والفقر والأمراض، إن هي إلا أدوية وعلاجات، ووسائل ودوافع تساعد الفكر الخامد وتحرّضه على البحث عن الحقيقة، والتعرف إلى الله، فلعل هذا الإنسان الغافل يستيقظ فكره من سباته، ويتعرف إلى خالقه، فيصل إلى الإيمان بلا إلّه إلا الله، ويظفر بالسعادة والشفاء دنيا وآخرة، ويكون من أهل النعيم المقيم، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: {**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**}[٦٨] إلى جادة الصواب، فهو به رحمن، ومن ثمَّ جنّات النعيم لأنه به رحيم.

إذن: {**الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**}: فهو (**الرَّحْمنِ**).. بخلقه بالشدة، التي يسوقها للمعرضين علاجاً ودواءً لما فيهم من علل وأمراض، وهو تعالى (**الرَّحْمنِ**).. بالنعمة، وبما يسوقه من الإحسان والفضل للمحسن المطيع، لما استحقه ولما فيه من الصحة والحياة، وهو سبحانه (**الرَّحْمنِ**).. بهذين الفريقين، لأنه ذاته تعالى رحيم.

فهو الرحمن الرحيم، فباسمه الرحمن، يوصلك إلى ذاته الرحيم منه تعالى، وإليه إلى إغداق فضله عليك بجناته العلى، التي من أجلها خلقك وللسعادة الكبرى.

---

٦٨ – سورة السجدة: الآية (٢١)

* * *

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)..}

والآن وبعد أن تكلمنا عن الآيات السابقة: **{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢).. الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}**ننتقل إلى الآية الرابعة، التي يبلغنا إياها أيضاً رسول الله ﷺ ، عن لسان الله تعالى ونحن مقتدون به بالصلاة، ومتجهون بمعيته من الكعبة إلى الله، وهي آية: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**: وفيها إقرار جميع الأنفس بالحق في يوم الدين.

والمالك: هو صاحب المُلك، وصاحب السلطة والأمر، والدِّين: هو الحق وتأدية الحق لصاحب الحق بالحق. و: **{يَوْمِ الدِّينِ}**: هو اليوم الذي تدين فيه الأنفس، أي: تقرُّ كلها بالحق، فهي تدين وتقرُّ، لأن الشهوة التي كانت تحجبها عن رؤية الحق في دنياها، تظهر لها يومئذ حقيقتها، وهناك تخجل من عملها وإساءتها، فتندم وتتحسَّر على تفريطها وتقصيرها، فترى أن كل ما جاءت به الرسل من ربِّها حقّاً، وترى أن الله هو الرَّحمن الرحيم وأن الله عادل وربٌّ متفضِّل، فتخضع مستسلمة إليه، وترى أن النار التي سيصير إليها العصاة، هي لهم خير علاج، وأن الجنَّة التي سيصير إليها الطائعون المحسنون، هي لهم خير مستقر ومقام، وكلٌّ وما يناسبه: الصحيح للنزهة والسرور، والمريض للمشفى والأدوية الكريهة والمسكِّنات، والعمليات الجراحية.

ومثل الخلْق جميعاً يومئذٍ، كمثل إنسان بين يدي طبيب حاذق، فتراه يدين له، أي يستسلم لأمره من بعد أن عاين مقدرته، وعرف كماله وعلمه، فإن كان هذا الإنسان صحيحاً ووصف له ذلك الطبيب طعاماً مغذياً، أخذ ذلك عنه بقبول وتسليم، وإن كان مريضاً عليلاً وأمره بالحمية، ووصف له بعض العلاجات المرة الكريهة، تراه يدين لكلامه ويُذعن مستسلماً لحكمته.

وكذلك يوم القيامة، يدين الخلْق جميعاً لربِّ العالمين، فيشكر المحسنون ربَّهم عمّا يسوقه إليهم من النعيم، ويحمده العصاة المجرمون ويستسلمون له على ما سيحله بهم، بناء على طلبهم، للتخلص من آلامهم النفسية الرهيبة التي لا تطاق من العذاب، في الجحيم، قال تعالى: **{وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[٦٩] وكلمة **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**تُبيِّن لك أن هذا الرب الرحيم الذي كل فعله لعباده إحسان وخير، هو المالك يوم القيامة، وليس لأحد من الخلْق يومئذ إرادة ولا اختيار في عمل يتقرَّب به إلى الله، وإذا كان قد منحك الله في هذه الحياة الدنيا حرية الاختيار، لتقوم بالأعمال التي تكون سبباً في سعادتك يوم المعاد، فقد انقضى في ذلك اليوم العظيم وقت العمل ومضى، وسيكون يومئذٍ الحساب، وسيكون الجزاء على الإعمال، وليس لأحد إذ ذاك أن يختار غير ما يستحق، وليس يُجزى إلَّا على ما قدَّم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

فإذا عرفت النفس صفات الخالق المذكورة، فعندها تخضع له وتستسلم، وتسلِّم أمرها له.

حرية الاختيار

ونشرح لك بعض الشرح أيضاً فنقول:

يريد الله تعالى بهذه الآية الكريمة أن يعرفك أن هذه الإرادة التي منحك إياها الآن في هذه الحياة الدنيا، هذه الإرادة التي نستطيع أن نسميها بحرية الاختيار، غداً وفي يوم القيامة الذي سماه الله تعالى بيوم الدين، ستؤخذ منك، وسيسترد الله تعالى منك يومئذ ما منحك الآن من حرية الاختيار، والله تعالى يومئذٍ هو المالك وحده المتصرف يجزي المحسن بإحسانه، ويكافئه بحسب درجته على ما قام به في هذه

---

٦٩ – سورة يونس: الآية (١٠)

الدنيا من صالح الأعمال، كما يجزي المسيء بإساءته، وليس لأحد في ذلك اليوم تصرف ولا تدخل، وليس لأحد يومئذ إرادة، ولا حرية في الاختيار.

قال تعالى: **{لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦).. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}**[٧٠] فالأجدر بالإنسان أن يقول ويُقرَّ بالحق في الدنيا، فما يفيده إقراره في الآخرة يوم القيامة؟!. المؤمن يجتهد ليرى ذلك في الدنيا، فينهض للعمل المُجدي الصالح الذي يدخله الجنَّة. وهنالك بعض القرَّاء ممن يخطئون في لفظ **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**: فيقولون: (مَلِكِ يوم الدين)..: لعدم اطلاعهم على معناها، فيغيرون المبنى لعدم فهم المعنى، علماً أن الفرق شاسع والبون كبير بين (ملك).. و **{مَالِكِ}**: فالله تعالى يعامل الناس في دار الدنيا ولهم الحرية والاختيار كملك الناس تاركاً لهم حرية الإطلاق والاختيار فقط: {...**فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**}[٧١] دون جبر ولا إكراه ويحصي عليهم أعمالهم، وبالآخرة يفقدون هذا الاختيار ويبقى الجزاء على الأعمال، فهو عندئذ مالك للعباد يعاملهم بحسب ما سبق من أعمالهم وما يستحقون.

فالمَلِك لا يتدخل في الشؤون الخاصة بالرعية، والمالك للأنعام: (كحصان أو أنعام أو دار)..، يتصرف بها كيف شاء، قال تعالى: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء...}**[٧٢] فالفرق كبير والبون شاسع بين مالك وملك. في كتاب حفظه الله من التحريف أو التغيير أو أن يُبدل حرف فيه...

---

٧٠ - سورة غافر: الآية (١٦-١٧)

٧١ - سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

٧٢ - سورة آل عمران: الآية (٢٦)

وتعريفاً لهذه النقطة وزيادة في إيضاح هذه الآية التي نحن بصددها، وتقريباً لها من الأذهان نذكر المثال الآتي فنقول:

هب أن امرأً أصيب بعلة من العلل اضطرته إلى دخول المستشفى، وأصبح قيد المعالجة والمداواة، فهل تراه وقد وكَّل أمره إلى الطبيب يداويه يكون حراً باختياره ما يشاء من طعام وشراب وعلاج ودواء، أم أنه أصبح رهين أمر الطبيب، وقد يرى الطبيب ضرورة لإجراء عملية جراحية فما دام المريض وأقرباؤه الأقربون قد اعتمدوا على هذا الطبيب ووثقوا بمهارته وإخلاصه، لذلك تراهم جميعاً يستسلمون له ويذعنون لحكمته، ويقدمون له كل مساعدة ومعونة، وليس يُتصور أن يتقدم أحد منهم فيطلب منه أن يعدل عن إجراء هذه العملية، أو يحول بينه وبين إجرائها في أقرب وقت يراه مناسباً.

إنك إذا دققت في هذا المثال أدركت حالين مقابلين قد تعاقَبا على هذا الإنسان، فبينما كان في منزله قبل ذهابه إلى المستشفى حرّاً في اختياره ما يشاء من طعام وشراب، حرّاً في استعمال الدواء أو العدول عنه، حراً في التنقل أنى يريد وحيثما يشاء، تراه إذا هو أصبح في المستشفى مملوك الإرادة، رهين أمر الطبيب، كذلك الحال بالنسبة للإنسان في الحياة الآخرة.

هو في الحياة الدنيا قد وهبه الله تعالى الحرية في الاختيار، فما هو مجبر على أن يسير في طريق دون طريق، وما هو بمكره على أن يباشر عملاً دون عمل، أو أن يبذل مالاً في وجه دون وجه، أما في الدار الآخرة فلا يستطيع أن يختار غير ما يشاؤه الله تعالى له بحسب حاله، ووفق ما يناسبه.

وتفصيلاً لحرية الاختيار في هذه الحياة الدنيا:

إذا أردت الوصول إلى مكان تقصده وكان له طريقان مؤديان إليه، فلك الحرية في اختيار أيهما شئت، وما أنت بمقيد ولا مرغم على ملازمة طريق معين والسير فيه،

وباستطاعتك إذا أنت جلست إلى مائدة، أن تختار النوع الذي تريده من الطعام، والثمرة التي تشتهيها، وكذلك الأمر بالنسبة للأعمال الصالحة، فإذا أنت مررت ببائس فقير، أو رجل عاجز، فباستطاعتك أن تمد له يد المعونة وأن تخفف عنه ما به، وباستطاعتك أن تتركه وشأنه ولا تساعده في شيء من حاجاته.

وقد يكون طبيب نائماً ليلاً في فراشه مستغرقاً في نومه، ويطرق عليه الباب رجل يطلب إسعاف امرئ عزيز عليه، وهنا يصبح الطبيب أمام أحد أمرين:

إما أن يعمل صالحاً فيهجر نومه ويضحي براحته، في سبيل إسعاف هذا الإنسان المتألم، وإما أن يخلد إلى الأرض ويعطي نفسه حظها من النوم والراحة، ويصمُّ عن صوت وجدانه.

وترد أمثلة كثيرة بهذا الخصوص، ومن هذا النوع، ويقع الإنسان الواحد في اليوم أمام مئات الظروف من هذا القبيل، وتتنافس الدوافع المختلفة في النفس، فإما أن يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، وإما أن يفكِّر ويلجأ إلى العكس، ولولا أن الإنسان حر في اختياره وإرادته، لما كان للعمل قيمة، ولما استطعت أن تميِّز بين محسن ومسيء. لولا حرية الاختيار لما تفاضل الناس في العمل، بل لبطل التنافس في فعل المعروف، ولما كان للإنسان تلك القيمة العالية، ولما كان أهلاً للتفوق على سائر المخلوقات. وهكذا فقد وهب الله تعالى الإنسان إرادة ومنحه حرية في الاختيار، ليتبارى الناس إلى فعل المعروف ويتسابقوا إلى العمل الصالح، وليكسبوا هذه الحياة في أعمال عالية، تجعلهم إذا رجعوا إليه فخورين بما بين أيديهم، وأهلاً للإقبال عليه تعالى، والتمتع بشهود ذلك النعيم المقيم، فإذا كان ذلك اليوم، وجاء كل امرئ يحمل بين يديه ما قدم من أعمال، فلا حرية يومئذٍ ولا اختيار، بل بحسب حالك وبحسب ما قدمت وأسلفت يكون جزاؤك، والملْك يومئذٍ لله الواحد القهار.

ذلك ما نفهمه من كلمة: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**، إنها تشير إلى عدالة رب العالمين، إنها تبين للإنسان ما منحه الله تعالى له في هذه الحياة الدنيا من حرية الاختيار، وأن الجزاء بحسب الأعمال، فالله سبحانه هو المالك يومها، وكل امرئ بما كسب رهين، فلا تنشغل بالفاني عن الباقي، وبما هو ليس لك عمّا هو لك، وما خُلِق لأجلك عمّا خُلِقت لأجله.

كلٌّ يبغي السعادة فلِمَ يلحق الشر؟!.

قبل أن نختم كلامنا عن هذه الآية الكريمة لا بدَّ لنا من الإجابة عن سؤال يعرض لكثير من الناس فيقولون: ما دامت الحياة الدنيا ليست غاية بذاتها، بل إنما هي مرحلة إعداد للحياة الآخرة، وميدان جدّ وسعي في الأعمال الصالحة، فلماذا لا يغتنم جميع الناس هذه الفرصة الثمينة؟!. ولِمَ يضيع أكثر البشر حياتهم الغالية؟!.

بل لماذا يتفاوت الناس في الأعمال ويختلفون، فمنهم المحسن الكريم، ومنهم الخبُّ اللئيم؟.

وإذا كان الله تعالى قد منحهم جميعاً إمكانيات متساوية، ووهبهم حرية الاختيار والإرادة، فلم لا يختارون كافةً طريق السعادة؟!. ولم لا يستفيدون من هذه الإمكانيات ويستعملونها في وجوه تعود عليهم بالخير في الدنيا والآخرة؟. وفي الجواب عن هذا السؤال نقول:

حقاً إن الله تعالى منح الخلق إمكانيات متساوية، وجعل لكل إنسان عينين، وسمعاً بأذنين، وشمّاً وذوقاً وأطرافاً، مثل بعضهم البعض، ووهبهم حرية الاختيار والإرادة، وهذا أمر بديهي تقضي به العدالة والعظمة والرحمة الإلٓهية، والفكر السليم لا يرضى إلا بهذا، ولا يطمئن القلب إلا إليه. وقوله تعالى: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ**

كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}[٧٣] فكلمة العرض للأمانة لا تحمل أدنى إكراه أو إجبار في حمل الأمانة.

ولكن ماذا يفيد الإنسان من حرية الاختيار، إذا أعرض عن منبع النور والجلال والجمال والكمال، وكان أعمى البصيرة، بعيداً عن الله؟!. فاتخذ إلهه هواه، مسيَّراً ذليلاً لنزعات نفسه الانحطاطية، ونزعات الشياطين.

أتظن أن امرءاً واحداً في هذا الكون كله يريد الشر لنفسه ولا يبغي لها الخير؟.

الناس جميعاً يبغون السعادة، وكل منهم يتطلب لنفسه الخير، لكن تباين الناس في الرؤية وعمى قلوبهم، يريهم الشر خيراً، وهو الذي جعلهم يختلفون هذا الاختلاف، ويتميَّزون عن بعضهم هذا التميز، فكان منهم البرُّ والفاجر، والمحسن والمسيء.

«**اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»[٧٤].

سبب عمى البصيرة

وتسألني عن سبب هذا الاختلاف في الرؤية فأقول وأعيد إلى ذهنك ما كنت ذكرته من قبل:

للأشياء صورة وحقيقة، وكثيراً ما تكون الصورة فاتنة مغرية، وتكون حقيقتها دنيئة منحطة، وقد تكون الصورة مجهدة متعبة، وتستكن من ورائها راحة وسعادة عظيمة. فمن الناس القاصر النظر، ينظر إلى الصورة فتستهويه، ويقف وراءها لا يعدوها فيحبها ويحسبها خيراً وسعادة، وهي في حقيقتها شر وحرمان وشقاوة، والمظاهر خدَّاعة. ومن الناس النافذ البصر المؤمن، الناظر بعين البصيرة، يخترق ببصره الصورة، ويشارف الحقيقة، فإن وجدها خيراً، اجتذبها لنفسه واطمأن إليها، وإن

---

٧٣ – سورة الأحزاب: الآية (٧٢)

٧٤ - الجامع الصغير رقم /١٣١٩/.

وجدها شراً، عافها وابتعد عنها، ولم يغرره ظاهرها، ولو رأى الناس جميعهم الحقائق وشهدوها، لما رأيت هذا التباين وهذا الاختلاف، بل لسلكوا جميعاً طريق السعادة والسمو والكمال، ولخلصوا مما يحيط بهم ومما ينتظرهم من شقاء.

على أن هذه الرؤية وهذه المعرفة ليست قاصرة على أناس دون أناس، بل لها أصول وقوانين، وكل من اتبع هذه الأصول وطبق هذه القوانين، أضحى نافذ البصر، مشاهداً بعين البصيرة، يشاهد الحقائق ولا يغره المظاهر، ولا تستهويه الصورة، مهما كانت فاتنة ومغرية. عندها يرى، ولا يطلب لنفسه إلا الخير، ولا تؤثر فيه المظاهر الغَرور الخداعة، إذ يرى الحقائق بنور الله، فهو بعينه يرى الصورة، وبعين بصيرته لكونه آمن، يرى الحقيقة:

"اللهم أرنا الحق حقّاً وارزقنا إتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه..".

أما القوانين التي تصل بالإنسان إلى معرفة الحقيقة، فهي تتلخص بمعرفة الخالق العظيم، والمربي الحكيم، فمن عرف الله تعالى خالقه وإلهه ومربيه، فقد عرف الحق، وهُدي إليه.

الحق من ربِّك

قال تعالى مشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: {**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**..}: يا محمَّد. {..**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**}[٧٥]أنت أبداً لن تكون من الذين لا يرون الحقائق بنوري.

قال رسول الله ﷺ : «**تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين**» و «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[٧٦]. وأكد تعالى لرسوله الكريم، أن الهدى لا يكون بغير هذا الطريق، فقال تعالى: {**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن**

---

٧٥ – سورة البقرة: الآية (١٤٧).

٧٦ – أخرجه أبو داوود والترمذي

تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[٧٧]لن تكون منهم أبداً. يجدر بالإشارة أن (لا).. بآية: {...**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**}وكذا بآية: {...**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**}[٧٨]نافية بكلتاهما، أي لن تكون أبداً من الجاهلين ولن تكون أبداً من الممترين (العميان)...

وموجز معنى هذه الآية الكريمة أن الرسول ﷺ لفرط حنانه على الخلق ورأفته بهم، كان يتمنى أن لو يستطيع أن يأتي المعاندين بمعجزة باهرة، فلعلهم يهتدون ويخلصون مما يحيط بهم من شر وشقاوة، فبيَّن له تعالى: أن الهداية لا تكون بالمعجزات وإظهار خوارق العادات، ولو شاء الله تعالى لأنزل على أولئك المعاندين آيات من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين، لكن ذلك لا يجديهم نفعاً، ولا يفيدهم معرفة وعلماً، ولا يصل بهم إلى إيمان، بل يجعل نفوسهم مكبوتة متطلعة دوماً ً إلى ما استقر فيها من شهوات، وذلك مما يتنافى مع السنن التي وضعها الله تعالى لهذا الإنسان، وقد كنا أتينا على ذكرها من قبل، فإن فعلَت النفسُ وعرفَتْ ربها فقد هديت.

{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ..}[٧٩]

يتلخص معنا مما سبق، أن الرؤية الصحيحة ومشاهدة الحقيقة، لا تكون ولا يمكن أن تكون إلا بعد معرفة المربي والإيمان به، والأمر موقوف على مشيئة هذا الإنسان وصدقه في طلبه، وقد أشار تعالى إلى هذه الناحية في كتابه الكريم فقال تعالى:

---

٧٧ – سورة الأنعام: الآية (٣٥).

٧٨ – سورة البقرة: الآية (١٤٧).

٧٩ – سورة الكهف: الآية (٢٩)

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[٨٠]

لقد هداهم الله تعالى على لسان رسولهم، إلى الطريق التي يصلون منها إلى الإيمان بالمربي، ومن ثم إلى الإستنارة بنوره ومشاهدة الحقيقة، لكنهم استحبوا العمى على الهدى، إذ تحوَّلوا ثانيةً وركنوا إلى الدنيا وشهواتها، فظلت نفوسهم في عمى وظلمة.

وهكذا فمعرفة المربي هي النبراس الذي يصل بالإنسان إلى مشاهدة الحقيقة، وهي السبب الوحيد في الوصول إلى الخير والسعادة.

وقد وهب الله تعالى الناس جميعاً الفكر، تلك الأداة التي يستطيعون بواسطتها أن يصلوا إلى معرفة خالقهم ومربيهم، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وبث في هذا الكون ما لا يحصى من الآيات التي تساعد الفكر على البحث والاستدلال، فمن استفاد من هذه الجوهرة الثمينة وأشغل فكره وأعمله في معرفة خالقه ومربيه، فقد ظفر بالسعادة وفاز، ومن شغَّل هذا الفكر وأعمله في السعي وراء المكاسب الدنيوية وتأمين الشهوات الدنية، فقد خاب وخسر هذه الحياة:

{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣).. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤).. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (١٠٥).. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٦).. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧).. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً}[٨١]

---

٨٠ – سورة فصلت: الآية (١٧)

٨١ – سورة الكهف: الآية (١٠٣–١٠٨)

أما وقد بينت لك أنَّ معرفة الخير من الشر، والتمييز بين الحق والباطل، لا يكون إلا بعد معرفة المربي، فمن اللازم في هذا المجال أن أبين لك درجات معرفة المربي، وما يتبعها من درجات التمييز بين الحق والباطل فأقول:

لمعرفة المربِّي جل جلاله درجات

أول درجة من درجات معرفة المربي هي الإسلام، والمسلم هو امرؤ أقرَّ بوجود خالقه ومربيه، إقراراً، كما أقر بأن يد الله تعالى هي التي تسيِّر الكون كله فقال: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، قال هذه الكلمة بلسانه، وصدَّق بها في نفسه، لكن قول هذا الرجل وتصديقه لم يكن مبنيّاً على نظر ذاتي وبحث فكري، واستدلال نابع من سعيه بالتفكير بالموت، وخشية سوء المصير الأبدي، فالالتفات إلى الآيات الكونية الموصلة إلى مكوِّنها وصانعها، بل اعتمد قول امرئ يثق به وتابعه متابعة، وصدَّق ما جاء به الرسول عن لسان الله تصديقاً، فطبق أوامر الله كلها، إذ فعل المأمورات طمعاً في الجنّة ونعيمها، وترك المنكرات وجاهد نفسه صابراً عن الشهوات، خوفاً من النار وحريقها، ومن هنا نستنتج أن التصديق بوجود المربي له أثره الكبير في التفريق بين الشر والخير، ولنستطيع أن ندرك طرفاً من معنى آية:

{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[٨٢]فلولا أن هذا الإنسان صدَّق بوجود خالقه ومربيه ذلك التصديق، ولولا أنه صدَّق بالجزاء على الأعمال وأنه مبعوث ليوم لا ريب فيه، لما جاهد نفسه في الصبر عن الشهوات ذلك الجهاد الكبير. لقد صدَّق بكلمات الله وطبقها، ولو لم يرَ حقائقها، فانظر إلى حال المسلم، وانظر إلى آثار محبة الإنسان لامرئ مؤمن، وكيف أن محبة أهل الصدق، تحمل صاحبها على السير في طريق الحق، وقد أشار الرسول ﷺ والسلام إلى ذلك بقوله الكريم:

---

٨٢ – سورة البقرة: الآية (١٤٧)

«كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبّاً ولا تكن الخامسة فتهلك»(٨٣).

فمحب أهل الحق ناجٍ دوماً، والمرء مع من أحب.

وما دام المرء مستمسكاً بمحبة من وثق به وما دام معتمداً نصحه فهو بخير، فإذا ما انقطعت أواصر المحبة أو كادت، زلت به القدم وهوى، وهو والحالة هذه على خطر عظيم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الدرجة التي قد يصل إليها الإنسان، والتي وصل إليها طائفة من الأعراب فقال تعالى: **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤).. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}**(٨٤)

وامتدح الله تعالى المسلمين: **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}**(٨٥)

كيف نرقى لدرجة لا خوف بعدها ولاحزن؟.

أما الدرجة الثانية من درجات معرفة المربي فهي درجة الإيمان: والمؤمن امرؤ جدّ في البحث عن خالقه ومربيه وما زال يدأب في البحث، ويواصل النظر والتفكير بآيات الكون، متذكراً الموت والفراق وما بعده، حتى وصل إلى معرفة هذا المربي

---

٨٣ - فيض القدير في شرح الجامع الصغير الحديث رقم /١٢١٣/.

٨٤ - سورة الحجرات: الآية (١٤-١٥)

٨٥ - سورة الأحزاب: الآية (٣٥)

والإيمان به، إيماناً ذاتياً شهودياً، منبعثاً من نفسه، لا بناءً على تصديق وثقة بأقوال الآخرين فقط.

وقد بدأ هذا الإنسان بالنظر إلى نفسه لما كان في بطن أمه علقة، ثم مضغة فجنيناً، وتساءل عن تلك اليد التي خلقته وربته، خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، تلك اليد التي كانت تسوق له الدم وتؤمِّن له الغذاء، وتبني وتصوِّر وتنظِّم كل عضو من الأعضاء، فعرّفه نظرُه في نفسه، بخالقه العظيم، ومربيه الحكيم.

ثم تابع النظر وتساءل: هل ربتني اليد العظيمة الحكيمة في بطن أمي وعنيت بي وتركتني أم ما تزال تشرف عليَّ وتعنى بي؟. أما حضَّرت لي غذائي حينما كنت طفلاً صغيراً؟. أما تؤمِّن لي ما تتوقف عليه حياتي، وتدير الكون كله من أجلي حتى أصبحت رجلاً كبيراً؟.

وما زال هذا الإنسان يتابع النظر والتفكير بطلب الوصول للإله، حتى يتوصل إلى تلك اليد التي تعنى به وتربيه، فهي التي تدير الكون كله وتشرف عليه، لتؤمِّن له طعامه وشرابه، فلا إلّه إلا الله، وكل ما في الكون سائر بأمر الله، فلا مسيِّر له سواه، ولا تصرُّف لإنسان أو مخلوق، ولا حركة له، إلا من بعد مشيئة الله.

عرف هذا الإنسان ذلك، بناءً على نظرٍ وتفكير واستدلال كنا بيناه: نظرٌ بعين الرأس، يرافقه التفكير الجدِّي المنطقي، يوصله للإيمان والمشاهدة القلبية بعين النفس، فكان إيمانه منبعثاً من ذاته وقرارة نفسه، لا تصديقاً فقط صدَّق به شخصاً طاهراً عالياً وَثَقَ به.

هنا تجد هذا الإنسان الذي آمن بخالقه ومربيه إيماناً حقّاً، وعرف أن الله تعالى معه ومشرف عليه دوماً، لا يستطيع أن يفعل منكراً أو يقترف خطيئة، إذ يحجزه إيمانه عن الوقوع في المحرمات، ويقيه السيئات، لأنه غدا يرى الله قريباً منه، مشاهداً له مطَّلعاً عليه، فقد عرف أن الله تعالى أنشأه، وأنشأ الكون لأجله.

وتسألني: هل أصبح هذا المؤمن ممن يرى حقائق الأشياء، حتى جعل يتباعد ويكف عن المحرمات؟. فأقول:

المؤمن في هذه المرتبة لا يترك المنكرات بناء على رؤيته حقائق الأشياء، بل إنما يتركها خوفاً من الله، فهو يرى أن الله تعالى معه حيثما اتجه وسار. وقد تميل نفس هذا المؤمن لشهوة من الشهوات المحرَّمة، لكن خوفه من الله يحجزه عنها، ومن هنا ندرك أيضاً طرفاً من معنى آية: **{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ..}**: "أيها المعلم للإيمان يا محمَّد ﷺ ". **{..فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}**[٨٦]فلولا أن هذا الإنسان آمن بخالقه ومربيه لما سار على الحق، ولما خافت نفسه من مخالفة أوامر الله والتعدي على الآخرين، ويستمر هذا المؤمن متوسعاً في نظراته في الكون، ويتوسع في تفكيره ويستمر على طاعته لخالقه, والاستقامة على أمره، وبذلك تتولد الثقة في نفسه بأن الله تعالى راضٍ عنه بعمله، فتقبل نفسه على الله تعالى مطمئنة برضاه عنه، وهنا تحصل لها الصلة بربها، فتستمد منه تعالى كمالاً بالصلاة التي هي صلة العبد بربه، فتزول من نفسه الميول المنحطة، وتنال الكمالات من رب الكمال، بناءً على مشاهداته الإيمانية، وتغدو مصطبغة بالكمال، وبذلك تحب أهل الكمال وتقدَّرهم وترتبط بهم ارتباطاً معنوياً، بسبب ما شهدته فيهم. وما تزال تتقلب في منازل الكمال من حال إلى حال، وترتقي في تعظيمهم وتقديرهم وحبهم يوماً بعد يوم، وآناً بعد آن، حتى تصبح أهلاً لأن تصاحبهم قلبيّاً، وتدخل بمعيتهم على الله، وهنالك تشاهد طرفاً من عظمة الله، وترى من حنان الله، وتطَّلع على جانب من رأفته تعالى ورحمته وعنايته بخلقه، فتقدِّره وتحبه وتعشقه، وبذلك الحب والعشق، وتلك الصلة العالية به، يسري النور الإلّهي لهذه النفس وتستنير بنوره تعالى، فترى بذلك النور الإلّهي حقائق الأشياء:

---

٨٦ – سورة البقرة: الآية (١٤٧)

ترى الخير خيراً، فتميل إليه وتحبه وتهواه، وترى الشر شراً، فتعافه وتكرهه ولا تعود تتمناه، وتلك هي التقوى، وتلك هي مرتبة من أعلى مراتب الإيمان، وذلك أيضاً طرف من معنى آية:

{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}(٨٧)

وهكذا فالرؤية وأعني بها رؤية الخير والشر، والتمييز بين الحق والباطل على درجات، تترافق مع درجات الإنسان في معرفة خالقه ومربيه. فللمسلم رؤية، وللمؤمن بالغيب رؤية (أي بعد أن لبست نفسه الدنيا وغابت عن الوجود الإلّهي ونسيته، عادت هذه النفس فاستدلّت عليه واتّصلت به من ثنايا آيات صنعه الكونية).. فرأت الوجود الإلّهي ثانيةً، والإمداد الإلّهي الساري في الوجود، وللمؤمن المتقي رؤية، والإنسان في هذه الحياة أحد رجلين:

رجل نظر إلى الشهوة وعجل إليها، واستكبر عن التفكير في آيات ربه والاستنارة بنوره، فلم يتعرف إلى حقيقتها، ولم يميّز خيرها من شرها. ورجل عرف نفسه، وتحقق من ضعفه وجهله، فرجع إلى خالقه، وإليه تعالى أناب واستنار بنوره، فهُدى واهتدى: {..**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**..}(٨٨)

وفي الحديث الشريف: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم..**» (٨٩)

وذلك بالإيمان بالله، والاستنارة القلبية بنور رسول الله ﷺ الموصل لنور الله، ليطلب من حاضرٍ جلَّ وعلا فيهديه.

---

٨٧ – سورة البقرة: الآية (١٤٧)

٨٨ – سورة التغابن: الآية (١١)

٨٩ - صحيح مسلم ج٤ رقم /٢٥٧٧/.

أما وقد عرَّفتك بدرجات ومنازل أهل الحق في هذه الحياة، وتبيَّن لك المسلم من المؤمن والمتقي، وحال كل من هؤلاء، فانظر إلى نفسك في أية درجة من الدرجات، واغتنم هذه الحياة، إذ بحسب حالك ودرجتك هنا، يكون حالك ومقامك في الآخرة عند الله. قال تعالى: **{هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}**(٩٠)

{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ}(٩١)أي حالك الإيماني ومرتبتك في الدنيا هي نفسها لك في الآخرة.

ونستمر بسورة الفاتحة فنقول:

المصلي الآن واقف في بيت الله بين يدي الله، مؤتمٌ برسول الله ﷺ منصتٌ إلى ما يبلغه إياه ﷺ عن لسان رب العالمين، وقد عرَّفه وقوفه هذا وإصغاؤه، بكمال خالقه ومربيه، فعرف أن الله تعالى رب العالمين، المسيِّر لهذا الكون بما فيه: يُحمد على هذا التسيير لأنه كله خير، وأنه تعالى هو الرحمن الرحيم، لا يسوق لعباده إلا ما فيه الخير، وأنه تعالى مالك يوم الدين، فإذا كان ذلك اليوم ووقف الخلق جميعاً بين يديه، أعطى كلاً بحسب استحقاقه و: **{..كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}**(٩٢)

أما وقد عرف المصلي ذلك كله، واطَّلع على جانب من حنان الله تعالى ورحمته ورأفته وعدالته، وحصل له الإيمان برسول الله ﷺ ، وأنه شفيعه إلى الله، وتمثّلت نفسه ما تلاه ﷺ من الآيات، هنالك تراه ينطلق معبراً عن شعوره وأحاسيسه تجاه خالقه ومربيه، فيقر بلسانه، وتندمج نفسه ساعتئذ بنفس رسول الله ﷺ ، الذي بلَّغه وعرَّفه بكمال خالقه فيقول معه:

---

٩٠ – سورة آل عمران: الآية (١٦٣)

٩١ – سورة الانشقاق: الآية (١٩).

٩٢ – سورة الطور: الآية (٢١)

{**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**}: أي: يا صاحب الحول والقوة، يا رحمن يا رحيم، ويا مالك يوم الدين، لا أعبد سواك. ونعبد: بمعنى نطيع، إذ أن العبادة هي الطاعة، طاعة المولى لسيده، والعبد لخالقه.

في هذه الآية الكريمة عهد من العبد يُعاهد فيه ربَّه على طاعته في كلِّ أمرٍ من أوامره، بمعية رسول الله ﷺ القلبيّة.

حقيقة العبادة:

وليست العبادة قاصرة على الصلوات والصيام والحج والزكاة. إنما العبادة كلمة عامة، تدخل في البيع والشراء، وفي معاملة الناس، وكل عمل من الأعمال.

فبقولك: {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**}: إنَّما تُعاهد ربَّك على أن تكون عبداً مطيعاً له وحده، فلا تطيع معه غيره مِنْ بعد أنْ عَرَفت رأفته ورحمته، ومِن بعد أن شَهِدْتَ جلاله وعظمته.

فأنت تقول: {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**}ونفسك قد أصبحت في حال لم تجد لها ملجأ إلا الله، ولا دليلاً إلى الخير سواه، أي أنك تقول:

أي ربّ!. وأنت المحمود على كلِّ حال، أنت رب العالمين، الرَّحمن الرَّحيم، المالك لنفسي وللعوالم بأسرها، من بداية خلقك إيَّاهم ودائماً وإلى مالا نهاية، والقابض على كل شيء، لم أجد لي إلهاً مسيِّراً مربياً أطيعه غيرك، ولا هادياً يهديني إلى ما فيه سعادتي سواك، فأنت ربي المطاع، لا أخرج في سيري عن أمرك، وأنت سيدي المعبود، لا أهتدي في كل عمل من أعمالي إلَّا بهدْيكَ. تقول ذلك وقد انغمستْ نفسُك في جلاله الله تعالى وعظمته، وشهدتْ فضله ورحمته، فوقفتْ خاشعة في أعتاب حضرته، وتحقُّق حصولك على هذا الحال من الشهود والخطاب، إنَّما يتم بالصحبة النفسية مع إمامك ﷺ السراج المنير، والصلاة صلة بين العبد وربه بنور رسوله الموصل لنور ربه.

الخير من الله والشر من نفسك

ثم تطلب من سيّدِك الرَّحيم بك، أن يمنحك المعونة على السيْر في طريق الحقِّ، فالشهوات والأهواء تكتنفك، إن لم يتم إيمانك بالله، وقد تخللت صلتك بربِّك انقطاعات، تسربَّت لنفسك من خلالها تلك الشهوات، والعوائق والموانع تحيط بك تريد أن تصدَّك. وقد تشتهي نفسك أثناء غفلتك، شهوة من الشهوات الخبيثة المحرَّمة، وتصرّ عليها، وتلحُّ في طلبها، ويصل جرثومها إلى سويداء نفسك، فإن لم تلتجئ طالباً المعونة من الله للشفاء الخالص من مُوجبات النار، التي هي الشهوات المحرَّمة، ولم يحجزك إيمانك بلا إلّه إلا الله عن محارمه، عندها يطلقك الله تعالى لاختيارك بما اكتسبت نفسك من شهوات. فإن منعك الله من فعلها ولم يمددك بالحول والقوة، فتك جرثوم تلك الشهوة بك، وتسرَّب إلى كلِّ ذرَّة من ذرَّات نفسك، فأصبحتَ وقد أحاطت تلك الشهوة بنفسك من جميع جهاتها، لا تستطيع منها مخرجاً، ولا تجد إلى الرجوع إلى ربِّك سبيلاً ومسلكاً، بل تظلُّ نفسك مشغولة بشهوتها.

والشهوة مسيطرة عليها بكلّيتها وشاغلة ساحتها، ولذلك من رحمة ربِّك أن يُطلقك ويُسيِّرك، وهنالك تستطيع أن تفعل ما أصررت عليه، وتصل إلى ما نويت.

وفي الحديث الشريف: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ ولكلِّ امرئٍ ما نوى**»(٩٣)

قال تعالى: {**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى...**}: هو طلب، والله يعطيه ويطلقه لشهوته، ولكن بعدها المداواة والعلاجات والشدائد والمصائب، لعلَّه يرجع. {**...وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ**

---

٩٣ - سنن ابن ماجه، ج٢ رقم /٤٢٢٧/.

مَصِيراً}[٩٤]تحذير منه تعالى، حيث ترك للمرء الخيرة، فإن تولى واتبع غير سبيل المؤمنين ولم يرجع عن غيِّه، وتوفي على هذا الحال، فإن مصيره إلى النار.

وقوله تعالى في محكم تنزيله يخطُّ لنا قانون العطاء الدنيوي والأخروي، إذ يقول تعالى: **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ...}**: الدنيا **{...عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ...}**: قد يطلب ولا نعطيه، إن كان لديه إمكانية للرجوع والشفاء، أما من تعلَّقت في قلبه وأصبحت مستحكمة ولم تكن له جدوى، هذا نعطيه. **{...ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً}**: على وجهه. **{وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا..}**الجنّة بالعمل لا بالدعاء، فمن فكَّر واستدلّ على لا إلّه إلا الله، فصلّى واستمسك بأهل الحق " فدخل معهم على الله"، فعندها يشاهد ويسعى. **{...وَهُوَ مُؤْمِنٌ...}**إن لم يكن مؤمناً لا يسعى، إن لم يكن مؤمناً فسعيه بطَّال. **{...فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً}**: عند الله. **{كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ..}**: الكلُّ عند الله واحد، وكل امرئ يعطى على حسب سعيه. **{...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...}**[٩٥]**{...وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً}**[٩٦]ما تطلبه تجده.

فإذا نويت نيَّةً وعزمت عليها وأصررت، فهنالك الإمداد من الله بالحول والقوة، وهنالك الوقوع في الفعل، وبهذا يجتمع جرثوم الشهوة في مكان واحد، وتخلو ساحة النفس ممَّا كان يشغلها جميعها، وبعد ذلك يُنزل الله الأمراض بذلك العاصي، ويسلِّط عليه المصائب، قال تعالى:

---

٩٤ – سورة النساء: الآية (١١٥)

٩٥ – سورة الحجرات: الآية (١٣)

٩٦ – سورة الإسراء: الآية (١٨-٢٠).

{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٩٧]إذن: الخير من اللّٰه تعالى، والشر من نفسك، لو أنك لم تعمل لما جاءك، عملت فجاءك، فكل عمل يعطيك الله عليه بحسبه، إن كان خيراً وإن كان شراً، بحسب إقبالك يعطيك، وبحسب إعراضك يعطيك بمقادير، ومن ثم المصائب، حتى تتوب وترجع إلى الله، وتخرج حب الدنيا من القلب.

فإن تاب وأقبل المرء بعد هذه المصيبة على ربِّه، سرى ذلك النور الإلّهي إلى النفس، وبهذا النور ترى حقيقة شهوتها، وتجد خبثها وعظيم شرِّها، فتعافُها وتأنف منها، ولا تعود تقع بها، قال تعالى:

{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[٩٨]

وإن أصابتها المصيبة ولم تقبل على ربِّها، ظلَّ جرثوم الشهوة عالقاً بها مجتمعاً في جهة من جهاتها، وتكون هذه المصيبة سبباً في ضلالها عن بقية شهواتها، فالفضيحة والإذلال بعد الزنا والألم، والحرمان من اليد بعد السرقة، واليقين بالموت بعد القتل، كل ذلك يجعل النفس تزهق في دنياها وتعزف عنها، ويُضلّها عما كمن فيها من أمراض وعلل نفسية دفينة لعلها تتجه إلى ربها آيبة تائبة، ولا تزال على ذلك (مصائب، شدائد).. حتى يوافيها أجلها: {...**وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ**...}[٩٩]هذا لمن لم يؤمن من ذاته أبداً، بل كان إيمانه تصديقاً سطحياً، فيكون عذاب القبر أو سعير النار سبباً في إقبال نفسه

---

٩٧ – سورة آل عمران: الآية (١٦٥)

٩٨ – سورة السجدة: الآية (٢١)

٩٩ – سورة الرعد: الآية (٣١)

على ربها، ومن ثم شفاؤها، هذا إن كانت ممَّن اعتادت أن تُقبل أحياناً، وحصلت لها الصلة بربِّها في دنياها.

أما إذا كانت كافرة معرضة، ولم تحصل لها الصلة بربِّها في الدنيا أبداً، ولم تتوصَّل إلى صفاته تعالى كي تتذوَّق محبَّته فتشفى ممَّا بها، فهنالك تكون النار سبباً حائلاً يحول بينها وبين ألم الشهوة الخبيثة التي تفتك بها، فتغيب بألم النار الشديد، عن ألم داء الشهوة الخبيثة، ومن رحمة الله بها ألَّا يرفع النار عنها، بل تظلُّ دائمة الحريق خالدة فيها.

هذا حال النفس الملوّثة بجرثوم الشهوات الخبيثة في الدنيا، فالمصائب وعذاب القبر وسعير النار، أسباب وعلاجات، تقود النفس إلى الإقبال على الله، وبذلك الإقبال تكون رؤية الحقيقة، ويكون الشفاء من جرثوم الشهوة المحرَّمة، التي علقت بالنفس ساعة الإعراض عن الله.

والصلاة تنهى...

على أنه إذا استطاع المؤمن أن يُقبل على ربُّه الإقبال الصادق، فإنه يرى بنور ربَّه، ما في الشهوات المحرَّمة من شر وأذى، وهنالك يكون الإقبال على الله وقاية له من الوقوع، وتطهر نفسه من عللها الخبيثة، فلا يميل إلى المحرَّمات، ولا يواقعها أبداً، ولذلك أمرنا ربُّنا أن نصل نفوسنا به دوماً، ونتجه إليه اتجاهاً صادقاً، فنصلِّي الصلاة الحقيقية، التي لا نرى فيها مع ربِّنا سواه، والله في قبلة أحدنا ما دام في مُصَلاه، وتلك هي مشروعية الصلاة، قال تعالى:

{...**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**...}[١٠٠]

---

١٠٠ – سورة العنكبوت: الآية (٤٥)

وبهذه الصورة المذكورة تنهانا صلاتنا، وتلك صلاة المؤمن بالله حقّاً، ومن لم تكن صلاته على هذا الوجه ظلَّ أعمى، لا يرى خيراً ولا شرّاً، فتراه يستحب الشر ويحسبه خيراً. قال تعالى:

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[١٠١]

ولذلك خوفاً من أن تميل نفوسنا إلى شهوة خبيثة، نطلب منه تعالى أن يمدَّنا بمعونته، فيكون معيناً لنا على رؤية حقيقتها، ولذلك نقول:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: إنه بهذه الكلمة، ينتقل المصلي المتقي من حالٍ إلى حال، ينتقل من حال المنصت المستمع لرسول الله، إلى حال المتكلم بمعيَّته ﷺ ، المعبِّر عمّا تولَّد في نفسه وما شعر به من معاني الحب لله، والخضوع والانقياد الكلي مع الرضا النفسي والاستسلام إلى الله.

ذلك كله بعض ما انطوى تحت كلمة: **{نَعْبُدُ}**: وكل امرئ يعبِّر حين يقول هذه الكلمة عن مشاعره تجاه خالقه، وعمّا خالج نفسه من معاني الطاعة والاستسلام والمحبّة لربه، بقدر ما عرف من حنانه ورحمته، وبقدر ما شاهد من عظمته تعالى وجلاله. وكل المصلين تتفق ألسنتهم وتتحرك شفاههم في صلاتهم بكلمة نعبد، لكن خضوع الأنفس والقلوب يختلف بحسب ما استقر في هذه الأنفس والقلوب، من جلال الله وعظمته، وبحسب ما شاهدت من رحمته تعالى، وبحسب ما خالطها من حب الله تعالى وعشقه، وما كلُّ من قال قال، وما كل من سار سار، ولكلٍّ أحوال ومقامات ودرجات، ولكلٍّ أذواق ومشاعر ومشاهدات، حتى أن المصلي الواحد إذا هو آمن بربه حق الإيمان، وشاهد طرفاً من كمال الله، تراه يتنقل في صلواته مرتقياً في هذه الكلمة، من حال إلى حال.

---

١٠١ – سورة فصلت: الآية (١٧)

وكلما قال كلمة بمعية رسول الله ﷺ ، استغرق بجلال الله وانغمرت نفسه بفيض من محبة الله، وذابت في الخضوع لأمر الله والاستسلام له. وإنك لا تستطيع أن تدرك ما انطوى تحت كلمة نعبد من معان، ولا تستطيع أن تعي ما شرحته لك، مالم تسلك أنت بذاتك طريق الإيمان، وتتعرف إلى الله، فإن فعلت وتعرفت، عرفت ما أقول، وعبرت عمّا في نفسك بما تقول، فكان قولك معبّراً عن حقيقة، لا مجرد لفظ وحركة. وأريد الآن أن أتوسع لك في شرح كلمة: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**: بعض التوسع، فلعلك تستطيع أن تتذوق شيئاً من معانيها إذا أنت أدركت ما سأبينه لك:

{إِيَّاكَ}: مؤلفة من كلمة إي وكاف الخطاب، ومن المعلوم أن ((إي)..).. حرف جواب بمعنى نعم كالآية:

{وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي...}(١٠٢) والكاف للمخاطب ﷺ أي: نعم إني مستجيب لك وبمعيتك لمن أنت رسوله جلَّ شأنه بالطاعة الشمولية الرضائية، أي العبادة.

إن المصلي حينما يقول كلمة: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**المؤلفة من هذين اللفظين يتناوب على نفسه حالان، فبكلمة إياك إنما يخاطب الذي تلا عليه ما تلاه من قوله تعالى: **{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**..الخ أو بالأحرى إنما يخاطب رسول الله ﷺ ، الذي عرَّفه بكمال الله، وبلَّغه تلك الكمالات عن لسان الله. إنه يخاطب رسول الله ﷺ , وقد اندمجت نفسه بنفس هذا الرسول الكريم حينما يقول: **{إِيَّاكَ}**بك وبارتباط نفسي بنفسك الطاهرة الفانية بمحبة ربها، والمستغرقة بمشاهدته، أصبحت نفسانا نفساً واحدة.

فآية: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**يقول هذه الكلمة وقد أصبحت نفسه في التفات نحو الله وشهود لجلال الله وجماله، وتقديس وتقدير لرحمته وحنانه بمعية رسوله الكريم ﷺ ونوره كما

---

١٠٢ – سورة يونس: الآية (٥٣)

ذكرنا. وهكذا فالمصلي بكلمة إياك التي يخاطب بها رسول الله ﷺ ، تندمج نفسه بنفس هذا الرسول الكريم، وتشتبك بها استعداداً للالتفات إلى الله، فإن هي أصبحت في هذا الحال التام من الارتباط بنفس رسول الله ﷺ ، استطاعت أن تقول كلمة: {**نَعْبُدُ**}ملتفتة بها إلى الله، وأن تكون أهلاً للتعبير عن مشاعرها تجاه تلك الذات العلية. وجاءت بصيغة الجمع إذ المؤمنون هُمْ جميعاً على قلبٍ واحدٍ مع رسول الله ﷺ .

وكما تشتمل كلمة إياك على معنى الارتباط والاندماج النفسي بنفس رسول الله ﷺ . استعداداً للالتفات إلى الله، فهي تنطوي على التصديق والاعتراف لرسول الله ﷺ بالرسالة.

المصلي بهذه الكلمة يخاطب رسول الله ﷺ أيضاً بقوله إياك أي بدلالتك، التي تبلغني إياها عن لسان الله، وبما تتلوه علي من أوامر الله أعبده تعالى، فأسير على أمرك الذي هو أمره تعالى، مطبقاً إياه وفق ما تبيِّنه لي وتدعوني إليه.

لا تَعْجَبْ!

ولعلك تقول كيف تعتلج هذه المعاني كلها في النفس، وكيف تتناوب على النفس هذه الأحوال والمشاهدات فأقول:

حال النفس حال عجيب، فقد تمرُّ عليها مئات المعاني، وقد تنتقل من حال إلى حال، في لحظة واحدة، وبأقل من طرفة عين، وهذا ليس على النفس بعسير، وليس منها بغريب.

فالله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم، بما جعل فيه من القابلية للتحلِّي بالفضيلة والكمال، والله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، بما فطره عليه من الاستعداد لاشتقاق الصفات الكاملة من ربه، اشتقاقاً عجزت عن الوصول لمثله كل المخلوقات.

والله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ، بما جعله فيه من الأهلية لمعرفة الذات العليّة معرفة عالية، قصرت عنها أنفس الملائكة الكرام، فلا السماء ولا الأرض ولا الجبال ولا البحار ولا الشمس ولا القمر، حتى ولا الملائكة المقرَّبون، بأقدر على تحمُّل التجلّيات الإلّهية، وشهود الكمالات التي تدل عليها أسماء الذات العليَّة، من نفس هذا الإنسان، وفي الحديث القدسي:

«ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»[١٠٣]

فالله سبحانه وهب هذا الإنسان من الفكر والملكات، وأعطاه من البصائر، وساق له من الآيات، وجعل له نفساً أشد قدرة، وأصلب عوداً، وأكثر تحمُّلاً، من أنفس جميع المخلوقات، وإلى جانب ذلك كله منحه الحرية في الاختيار، ولم يَكِلْ أمره إلى أحد، كما هو عليه حال الحيوانات، فلعله بذلك يستطيع أن يشهد كمالات ربه تعالى، وأن ينعم برؤية أسمائه الحسنى، رؤية تجعله يسبح في ذلك الكمال، ويتمتع بذلك الكنز العالي، دهر الدهور وأبد الآباد. وفي الحديث القدسي: **«كنتُ كَنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق وعرَّفتهم بي فبي عَرفوني»** [١٠٤] فإلى ذلك خُلِقتَ أيها الإنسان، ومن أجل التمتُّع بذلك الكنز أوجدك ربك، ووهبك ما وهبك من فكر وإدراك وملكات، وجعلك في أحسن تقويم، لتستطيع السمو بنفسك سمواً لا يدانيك فيه مخلوق.

---

١٠٣ – الطبراني في الكبير

١٠٤ – قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** الذاريات (٥٦).. وقد وافق على صحة الحديث الشيخ على ملا القاري مستنداً إلى تأويل ابن عباس لقوله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**: أي ليعرفوني. وقد اعتمده الصوفية وابن عربي وبنوا عليه أصولاً.

فإن أنت أقبلت على ربّك وتعرَّفت إليه، فقد فزتَ بالسعادة الأبدية والحياة السرمدية. وإن أنت أعرضتَ، فقد خسرت نفسك وما أعدَّه لك ربك من عطاء في الجنان، وأصبحت مع أسفل السافلين من المخلوقات.

أما وقد شرحت لك ما شرحت، وعرفتك بما عرفتك به، فلا تحسبن أني لشرحي كلمة إياك إنما أغيّر معالم اللغة وأحوِّر ألفاظها، وأضعها في غير ما وضعت له وما تعارف الناس عليه، فإنك إذا صليت هذه الصلاة التي هي كلها وجهة إلى الله، واستغراق في شهود كماله، ورفقة تامة لرسوله الكريم ﷺ ، وتلك الرفقة النفسية للنفس العليّة المحمدية، هي عين الشفاعة، شفاعة نفس لنفس سامية، وإقبال بمعيتها على الحضرة الإلَّهية، وارتشاف للكمالات من حضرة الله، وشفاء من الميول الدنيّة، فإذا فهمت هذا حق الفهم، وعرفت أن اللفظ الواحد تنطوي تحته معان جمة، اندرس كثير منها وانمحت معالمه لدى الناس، ولم تبق لديهم من اللغة إلا أطلال وآثار، حتى أصبحوا في حال لا يفرقون معه بين معنى كلمة الرب والإلّه، والأبُ والآب، أو الرحيم والرحمن، أو الحمد والشكر، أو الروح والنفس، أو العقل والفكر، ولا يدركون معنى الصلاة والصيام والحج والزكاة، وغير ذلك من أوامر، ومن يؤمن بالله يهد قلبه، ويجعل له نوراً يسير به: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...**}: ولكن يجب أن تقبلوا بصحبة رسول الله على الله، كي تحصل التقوى. {**..وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**}[١٠٥]

مثل بسيط عن سيْر النفس والزمن: ففي الرؤيا أو الأحلام، قد يشاهد المرء مناماً أو رؤيا تنقضي بدقائق قليلة ويستيقظ، ولكنه يرى بمنامه أنه قضى أياماً أو زمناً طويلاً، حتى أنه حين يقصُّ ما رآه، قد يستغرق بالحديث عن منامه أضعاف زمن المنام، حتى لا يبقى للزمان والمكان، لدى النفس التي تتجرَّد بالنوم عن جسمها،

---

١٠٥ – سورة الحديد: الآية (٢٨)

زمن محدد، فيتغير مفهوم الزمان والمكان. أما بالصلاة فيتم سيْرها بالحقائق اليقينية، باستنارتها بنور الله، وينمحي تأثير الزمان والمكان لحقائق كبرى مترعة بالخيرات. وكفى بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر خير شاهد ودليل...

الوفد السامي

ثم يتابع المصلي القول فيقول: **{وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**: ويتناوب على نفسه أيضاً في هذه الكلمة الحالان اللذان مرَّ بهما من قبل في كلمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}: فيجعله خطابه لرسول الله بكلمة: **{إِيَّاكَ}**: في حال المرتبط بنفسه الشريفة ﷺ المستشفع به إلى الله، وتجعله كلمة: **{نَسْتَعِينُ}**: في حال الملتفت إلى الله تعالى الداخل عليه بمعية رسوله. يقول هذه الكلمة بلسانه، معترفاً في نفسه بأنه لولا هذا الارتباط بهذا الرسول الكريم، والاعتصام به وبنوره الموصل لنور الله، لما غدا أهلاً لأن يدخل على الله ويستعين به.

وأنت ترى من خلال ما شرحناه عن كلمة: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**: أن المصلي بهده الكلمة إنما يصبح في حال يرى نفسه فيه أنه داخل على الله بمعية رسوله ﷺ ، عابداً مستعيناً، كوافد وَفَدَ بصحبة رئيس له حظوة وزلفى لدى ملك عظيم.

وإذا حصلت لهذا المصلي تلك الحُظْوَة والمكانة من الدخول في حضرة هذا الإلَه العظيم، فما ذاك إلا بفضل صحبة رئيس هذا الوفد، وإن شئت فقل بفضل هذا الرسول الكريم ﷺ .

والآن نستمع إلى رسول الله ﷺ رئيساً لهذا الوفد، يتكلم بلسانهم جميعاً، مخاطباً ربَّ العالمين فيقول وقد اندمجت نفوسهم معه، ولسان حالهم ينطق بما ينطق به رئيسهم فيقول: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦).. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}**: رئيس الوفد يطلب من رب العالمين هذا الطلب، طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، والوفد جميعهم بمعيته منصتون، فإذا ما أتم قوله وانتهى من

بيان مطلبه، أمّن الجميع على ذلك، معلنين موافقتهم على ما طلب رئيسهم، ضارعين إلى الله تعالى أن يلبي مطلبه الذي هو مطلبهم، ويتفضل عليهم بالإجابة فيهديهم جميعاً إلى الصراط المستقيم، قائلين بلسان واحد كلمة: (آمين)...

حقيقة الصراط المستقيم:

والصراط: هو الطريق. وهداه إلى الطريق بمعنى: أرشده إليه وبيَّنه له وعرَّفه به، وفي هذه الآية:

{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}: تحصل لك التقوى، أي: أنك تطلب من خالقك بعد أن التجأت إليه، وأدخل رسول الله ﷺ نفسك عليه تعالى فعذْتَ بجنابه، وصرتَ في حضرته، تطلبُ منه أن يتجلَّى عليك بنوره، لترى دوماً طريق الحق، وليستبين لك سبيل الرشد في كل أمر، ضمن رضاه تعالى، وما أمره تعالى إلا ضمن الحق.

وبالحقيقة للأشياء صورة وحقيقة. فالعين بواسطة نور الشمس، ترى من الأشياء صورتها دون حقيقتها. وذلك لأن خيال الجسم إنما يرتسم على الطبقة الشبكية في العين، وهنالك تراه النفس وتشعر به، فالنفس والحالة هذه لا ترى إلَّا الخيال والصورة، ولا تستطيع أن تشهد الكُنهَ والحقيقة، ورؤية الحقيقة لا بد لها من نورٍ قوي أقوى من نور الشمس، ومن بصرٍ نافذ حديد يصل إلى اللب، وذلك النور القوي الذي يكشف لك الحقيقة البيّنة الواضحة، هو نور الله تعالى، وذلك البصر الحديد، إنما هو النفس بذاتها وكليَّتها، مجرَّدة عن كل حجاب يحجبها، فبهذه الآية الكريمة إن أصبحت صادقاًَ في التجائك لله، عندها تُقبل بنفسك على الله وتستهديه، وتطلب منه أن يتجلَّى عليك بنوره، فإذا صدقت في توجُّهك وطلبك حقّاً، فهنالك تحصل لك التقوى، فيجمع تعالى نفسك مع نفس رسوله الكريم ﷺ ، فأنت حينئذ معه على الصراط المستقيم، وبنوره ﷺ يصل بك إلى نور الله تعالى الأصل، ويكشف لك

هذا النور الإلّهي حقيقة الأشياء، فتميِّز خيرها من شرِّها، ويكون لك من الله تعالى فرقان، يُريك طريق الحق واضحاً نيّراً، قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ...}[١٠٦]

فهذا النور الإلّهي، يضيء للنفس طريق الحق ويُريها الخير من الشر، والمؤمن الصادق يستهدي ربَّه في سائر شؤونه، ويستلهمه الرشد والصواب في كل أمر من أموره.

فإذا حصلت لك التقوى هذه، وصرتَ ذا بصيرة عند تلاوة الآية التي نحن بصددها، فهنالك ترى أن الكون كلَّه مشمول بالعدل، وقائم بالحق، وتشهد أن الخلْق جميعاً مسيَّرون على صراط مستقيم، فلا يُسلَّط الحاكم الغاشم، إلَّا على امرئٍ مُسيء ظالم، ولا يُعانُ الجاني المجرم، إلَّا على معتدٍ آثم، ولا يسوق الله صاحب المعروف والإحسان، إلَّا لعبدٍ سبق منه المعروف وصدر منه الإحسان، ولهذا فإنك تطلب من الله أن يجعل تسييرك على صراط مستقيم بمعيَّته ﷺ ، ذلك لأن نوره ﷺ يصل بك لنور الله، ولما يعود عليك بالنعمة والخير فتقول:

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ...}: أي: اجعل يا إلهي عملي كلَّه إحساناً لخلْقك، وسيْري خالصاً في خدمة عبادك، واجعلني ممَّن عاملوا خلقَكَ بالخير والإحسان، فاستحقوا منك النعمة والإحسان، ولا يتقرَّب المتقرِّبون إليك إلَّا بخدمة خلْقك، فاجعلني يا إلهي في زمرة عبادك المحسنين، الذين تفانوا في خدمة خلْقك، ففازوا برضائك، وكافأتهم على إحسانهم بجنَّتك ونعمتك، أسوة برسولك النبي الأمي.

{..غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ..}:

---

١٠٦ – سورة الحديد: الآية (٢٨)

من هم المغضوب عليهم: وهم الذين أقرُّوا لك بالربوبية، ولرسولك بالرسالة، فقالوا: لا إلّه إلا الله موسى كليم الله، لا إلّه إلا الله عيسى من روح الله، لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، ثم حادوا عن طاعتك، ومالوا عن شريعتك، فكانت أهواؤهم مسيطرة عليهم، وشهواتهم غِلاً في أعناقهم، فاحفظني يا إلهي من أن أكون من هؤلاء المغضوب عليهم، الذين سمعوا كلامك ثم عصوك، ولم يطيعوا أمرك، فكانت معاملتهم لعبادك مشحونة بالمكر، وملأى بالأذى والشر، وحلَّ عليهم غضبك، ونَزَلَ بهم سُخطك، لأنهم حرموا أنفسهم ممَّا أعددته له من الفضل والخير، وخسروا ما هيَّأته لهم من النعيم المقيم، فهم بإرادتهم واختيارهم تَرَكوا فتُركوا.

أما كلمة: {..**غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ**..}: بالنفي، فهم الرسل الكرام والأنبياء العظام، وكل من اتبعهم بإخلاص حتى مفارقته الحياة الدنيا، هم عرفوا فما حرفوا أبداً، وكانت العصمة لهم وهم أهلها والأحقُّ بها، فلا شائبة ولا منقصة لهم قطعاً: تنام أعينهم ولا تنام عنك يا رب قلوبُهم، فلا يقع منهم خطأ، فاهدنا بهديهم فأنت هديتهم. {**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...**}[١٠٧]

{..وَلاَ الضَّالِّين}!.

من هم (الضَّالِّين)..: الضالّون هم الذين لم يهتدوا إليك، بل ضلُّوا عنك وعن رسلك، فلم يهتدوا بهدْيك وما عرفوا أسماءك الحسنى، ولم يشهدوا صفاتك العليا، فكان ذلك سبباً في ضلالهم عن طريق النور والحق والهدى، فحسبوا عمل الخير خسارة ومغرماً، وظنُّوا التعدِّي والمكر ربحاً ومغنماً، فاحفظني يا إلهي من أن أضل عنك، ومن أعرض عنك استحوذ عليه الشيطان، فكانت أعماله كلُّها شرّاً. إذ كانت الدنيا الدنية المنقضية وأهلها أكبر همِّهم ومبلغ علمهم، لا يبغون سواها، وعن سماع

---

١٠٧ – سورة الأنعام: الآية (٩٠)

الآخرة والإلّه عازفون، ولدنياهم بكلِّيتهم منصرفون، لذا أوتوا شهواتهم الدنيّة التي بها هلاكهم الأبدي، وعندما ماتوا ما ربحت تجارتهم، إذ ما كانوا بدنياهم أبداً مهتدين. احفظني يا إلهي من أن أضلَّ عنك، فإنك ربٌّ رؤوفٌ رحيم، وإنك مصدر كل فضيلة وخير، ومن ضلَّ عنك لا يفعل خيراً أبداً، ومن ضلَّ عنكَ هَلَكَ وخسر خسراناً مبيناً.

فكلمة: {..**وَلاَ الضَّالِّين**}: بالنفي شملت أيضاً: {..**غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ**..}: وهم الرسل والنبييون، ومن تابعهم بإحسان، مهتدين بهديهم، مستنيرين بنورهم لا يضلّون أبد الآباد.

* * *

وقد تطلب مني أن أزيدك في شرح هذا المقطع الأخير من سورة الفاتحة فأقول:

ليس يغني الشرح الطويل عن الإنسان شيئاً، إذا هو لم يؤمن بربه، ولم يقف في صلاته ذلك الموقف الذي تصبح نفسه فيه مؤتمة برسول الله ﷺ ، مستنيرة القلب بالنور والغبطة. وإنَّ تقديراً يسيراً لفضل الله مبنيّاً على التفكير الصحيح، وشيئاً من محبةٍ أو تقدير لرسول الله ﷺ ، ووجهةٍ صادقة تولي بها وجهك نحو الله، تغرس في قلبك وتلقي في مسامع نفسك أضعاف أضعاف ما أشرحه وأبينه لك في شروح ومعانٍ، ومع ذلك كله وحيث أن المعرفة الصحيحة قد تكون حافزاً لصاحبها إلى طلب الحقيقة، والوصول إلى العلم الصحيح أقول:

الصراط المستقيم في كل شؤون الحياة

بعد أن أصبح هذا المصلي في حضرة الله تعالى، داخلاً بمعية رسوله الكريم، يبدأ رسول الله ﷺ القول مخاطباً الله تعالى بلسانه ولسان من معه من المصلين المؤمنين بقوله:

{**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**}والصراط هو طريق العمل الذي تسلكه النفس في سبيل بلوغ هدف وغاية معينة. وبما أن حقيقة العمل بحاجة لنور قلبي، يفرِّق به بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، فالصراط المستقيم يتطلب طريق العمل المرفق بالنور الإلٓهي، كما تسري السيارة ليلاً على الطريق الصحيح بنور كهربائها.

وبما أن كل امرئ في هذه الحياة له هدف وغاية من الغايات، وحيث أن كلّاً له صراط يسلكه في سبيل تحقيق هدفه والوصول إلى غايته، لذلك تجد هذا المصلي الذي آمن بخالقه ومربيه حق الإيمان، والذي لم يبق له من هدف أو غاية سوى رضاء الله، تجده يتطلب من الله تعالى في سره متوافقاً في مطلبه هذا مع مطلب رسوله، يتطلب من الله تعالى أن يهديه بنوره، ليطيعه في كل عمل من أعماله، صراط الذين أنعم الله عليهم، أي أولئك الذين آمنوا بخالقهم ومربيهم، فهداهم الله بطاعتهم له وحده في أعمالهم إلى الطريق المستنير، الذي يعود عليهم بالسعادة والخير، ولذا تجد المصلي يعيد كلمة: {**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**}بقوله: {**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ**}. كصراط سيد الخلق ﷺ النبي الأمي الذي تؤم له الأنبياء والمرسلون.

وبشيء من التفصيل نقول:

جمع المال والإنفاق، وكذا البيع والشراء، والزواج والطلاق، ومعاملة الزوج والأولاد، والأهل والجيران، ثم الحرب والسلم، والاسترقاق والعتق، حتى المسير في الطريق والتحدث إلى العدو والصديق، لا بل كل أمر من أمور، وكل عمل من الأعمال مهما جلَّ وعَظُم، أو دقَّ وصَغُر، كل ذلك له أصول وله طريق، وإن شئت فقل كل ذلك له صراط مستقيم، يعود على صاحبه بالسعادة والخير، فإذا أنت طلبت من الله الهداية وهو العليم، هداك إلى ذلك الصراط المستقيم، الطريق القويم، وأنار قلبك. وجعل في ذلك العملِ الخيرَ على يديك، وبذلك تكتسب عمرك الثمين في الأعمال

العالية، التي تجعلك يوم القيامة فخوراً بها، إذا أنت وقفت للحساب بين يدي رب العباد، وفي الحديث الشريف:

«**يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم..**»[١٠٨] ولذا كان الله ﷺ أهدى الخلق إلى الحق، وأعرفهم بأصول الحياة، ذلك أنه لم ينقطع عن ربه طرفة عين، بل كان دوماً مقبلاً على الله مستنيراً بنوره، مستهدياً في كل أمر من الأمور، وكل عمل من الأعمال، لم يهمل تفكيره طرفة عين. وكذلك أصحابه من بعده والمؤمنون عامة، كل بحسب درجته وبحسب حاله وصدقه.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[١٠٩]

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ..}: بلا إلّه إلا الله وعرف ربّه، ورأى أن ربّه معه دوماً لا يفارقه. يمدُّه بالليل والنهار. {**..وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ..**}[١١٠] إلى التقوى، إلى طريق الحق، إلى الجنان، بمعيَّة رسول الله ﷺ حيث يرى بنور الله الذي أوصله إليه نور رسوله ﷺ الحق من الباطل، وقد أصبح ذو تمييز يقيني بين الخير والشر، فينهض للخيرات ويجتنب المهلكات.

المؤمن الصحيح طلبه رضاء الله، متى آمن الإنسان حقاً، على نفس الطريق التي آمن بها أبونا إبراهيم عليه السلام، من الآيات الكونية صنْع الإلّه العظيم، وصل للتقوى، وعلى هذا عاهد الإنسان ربَّه يوم أخرجه وأظهره إلى هذا الوجود، وكان إذ ذاك نفساً مجردة، عاهد ربَّه إذا هو جاء إلى هذه الدنيا، أن يظل دوماً مستهدياً بالله، مستنيراً بنوره، متمسكاً بأهل الحق: {**..إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (١٩).. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ**

---

١٠٨ – الجامع الصغير رقم /٦٠٢٠/.

١٠٩ – سورة محمد: الآية (١١)

١١٠ – سورة يونس: الآية (٩).

اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ}[111]في الأزل، كافة الخلق عاهدوا الله قبل مجيئهم للدنيا بأنهم إن جاؤوا للدنيا، فإنهم يظلُّون مقبلين عليه تعالى، متمسكين بنوره: {..**وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ**}: ما جاء به الرسل، جاء للدنيا وثبت على الحق، عاهد وصدق عهده. {..**وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**}[112]

ذلك ما يتطلبه المصلي في صلاته، يتطلب من الله تعالى أن يهديه الصراط المستقيم، فيقول في الصلوات الخمس: {**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦).. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**}: وهم السادة الرسل والأنبياء العظام، من طهرت نفوسهم وتشرفت بالإقبال على الله.

ذلك كله بدءاً من كلمة: {**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**}إلى كلمة: {.. **وَلاَ الضَّالِّينَ**}يتلوه رسول الله ﷺ كما ذكرنا بلسانه، مخاطباً به ربَّ العالمين، هنالك يؤمِّن المقتدون به ﷺ بالإجابة إلى الهداية للصراط المستقيم بكلمة: (آمين)...

وهنا يتفضل الله عليه فيملي أوامره على رسوله ويسمعها المصلي بالتبعية، وهي عبارة عن آيات القرآن الكريم، فيقول تعالى وعلى سبيل المثال نورد السورة التالية وهي الكوثر، إذ يجيبه تعالى حين طلب لنفسه الشريفة ولمن معه من المصلين الهداية:

{**اهدِنَا**..}يقول له تعالى: {**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**}: لك ولهم. {**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢).. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**}.

وهكذا ففي سورة الفاتحة تعريف بكمال الله، وتذكير بحنانه ورحمته، وإيقاظ وتحذير، ثم طلب هداية إلى الصراط المستقيم.

---

١١١ - سورة الرعد: الآية (١٩-٢٠).

١١٢ - سورة الفتح: الآية (١٠)

وفي السورة جواب للطلب: {**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**}وهداية من الله تعالى إلى الصراط المستقيم، يجبْه تعالى بسورة العصر على سبيل المثال أيضاً.
ولنوضح لك الآن طرفاً من معنى سورة العصر، وما فيها من هداية لهذا الإنسان، وما فيها من دلالة وعناية نقول:

العصر:

هو العمر الذي تقضيه أمة أو امرؤ في هذه الحياة، فيظهر منه ما يظهر، من أعمال عالية وخدمة خلال هذه الفترة مما اشتملت عليه من نوايا طيبة وصفات. وبناءً على هذا يقال عصر الرسول ﷺ ، وهو أسُّ بحثنا.
ويريد الحرف الذي سبق هذه الكلمة وهو الواو، أن يبين شأن هذه الكلمة ويلفت نظر الإنسان إليها، فيجعلها موضع اعتباره ومحطّ نظره ومجالاً لتفكيره، بسبب ما استكن فيها من دلائل دالة وآيات بينة، ونقاط تستحق التأمل وتجتذب النظر وتستدعي التفكير.
ومن هنا يتبين لنا أن الله تعالى بكلمة: {**وَالْعَصْرِ**}التي افتتح بها هذه السورة الكريمة، إنما يلفت نظرك أيها الإنسان، ويوجه نفسك ويعرفك بأن رسول الله ﷺ ، إنما عرف قيمة هذا العمر، وشأن هذه الحياة، فاكتسب عمره الغالي، في التعرف إلى خالقه تعرفاً سبق به سائر الخلق، وبذلك انبعث من هذه النفس الشريفة العالية، تلك الصفات الرفيعة والأخلاق العالية، والأعمال الجليلة. فاستحق أن يخاطبه تعالى بكلمة:
{**وَالْعَصْرِ**} أي: وعصرك العالي، الذي ما داناك فيه أحد، وعمرك الغالي الذي اكتسبته فيما خلقت له من أعمال البر والخير للهداية، اكتساباً ما حقق أحد مثله، إذ لم تضيّع منه لحظة، ولم تغفل فيه عني طرفة عين، وإني إذ أعلن ذلك على لسانك، فإنما أعرفك بمقامك العالي لديَّ، لتزداد حمداً وقرباً وعلوّاً وسموّاً، وأعرِّف عبادي

بمكانتك الرفيعة، ليزدادوا لك تقديراً وتوقيراً وحباً، وليتخذوا منك لأنفسهم مثلاً أعلى، فيقتدوا بك ويسيروا على غرارك، وينهجوا نهجك ويسمعوا نصحك، وليطبقوا دلالتك، فيكتسبوا عمرهم كما اكتسبته أنت بجلائل الأعمال الإنسانية الكبرى، ويقضوه في الخير والهداية كما قضيته، وبذلك ينالون رضائي، ويستحقون عظيم جزائي، ذلك بعض ما توحيه لنا كلمة:

{وَالْعَصْرِ}إنها شهادة من الله برسوله، وتعريف لنا بقدره العظيم ﷺ ومكانته السامية عند ربه، فكم له ﷺ من تضحيات إنسانية رحيمة كبرى، وكم صبر على قسوة قومه وسفاهتهم، وكان لطيفاً معهم رحيماً بهم، كم كان على خُلق عظيم وطموحات إنسانية رحيمة، شملت وأحاطت بالعالمين، فكان رحمةً للعالمين كافة أرسله الله. وكم له من أعمال كبرى إنسانية، لم يدانه بمثلها أحد من العالمين، لذلك حثَّنا تعالى على متابعة هذا الرسول الكريم والاقتداء والائتمام به فهو النبي الأمّي الذي تؤم به الخلائق أجمعين.

وبعد أن عرّفنا تعالى بما عرّفنا به في هذه الكلمة، أشار تعالى بقوله الكريم:

{إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}فما عرف بنو الإنسان قيمة هذه الحياة التي يحيونها، وما أدركوا ما يمكن أن يأتيهم من الخيرات، لو أنهم اغتنموا هذه الأيام التي يعيشونها في هذه الحياة، بالصحبة النفسية بمعيَّة هذا الرسول العظيم فمن لم يقدِّر رسول الله ﷺ وأعرض عنه وهو حبل الله وهو دليله إلى الله، فهو في حياته في خسر. وهكذا فالحياة الدنيا غالية ثمينة، وعمر الإنسان له قيمة عظيمة، وهو من أعظم ما تفضل الله تعالى به عليك في هذا الوجود، فإن اكتسبته في التعرف إلى خالقك ومربيك المعرفة اللائقة، أنتجت لك معرفتك هذه حباً بالخير وأهله، فقضيت عمرك الثمين في العمل الصالح، وأفنيته في خدمة الخلق وإنقاذهم مما هم فيه من جهالات، وأخذت بأيديهم إلى طريق الحق. كما فعل أسوتك الحسنة ﷺ ، وهنالك تفوز بما

وعدك الله تعالى به من الخيرات، وتنعم إذا أنت خرجت من هذه الحياة، بما أعده تعالى لك من النعيم والجنات، وتُضْحي لأن تكون قريباً من تلك الذات العلية ترى من النعيم المقيم، وتتمتع بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤).. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}(١١٣)

هؤلاء: **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ..}**(١١٤)

فلهذا خلقت وأرسلت لهذه الحياة، أمَّا أكثر بني الإنسان ففي خُسر، إذ ألهتهم الدنيا وزينتها، وأخلدوا إلى الأرض وزخرفها، فقضوا عمرهم الثمين في جميع الدرهم والدينار، وإشادة القصور والتطاول في البنيان، وإضاعة الوقت في أماكن اللهو المحرم، ودنيء الشهوات، فخسروا عمرهم وأضاعوا هذه الحياة، وذلك بعض ما نفهمه من قوله تعالى: **{إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}**.

وقد عمم تعالى بهذه الآية القول: فقال إن الإنسان لفي خسر، ولم يقل أكثر الناس، وذلك ليعرفنا أن البشر بصورة عامة، لهم قانون ينطبق على كل فرد منهم بلا استثناء، فمن طبق هذا القانون سعد وفاز، ومن حاد عنه هلك ووقع في الخسران كائناً من كان، ولذلك أَتْبَع تعالى هذه الآية الكريمة بقوله: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..}**كل شيء في هذا الكون له قانون ونظام، وكل ما في السموات والأرض يعمل ضمن نظام، وقانونك الذي ينبغي أن تسير عليه، ونظامك أيها الإنسان منشور في هذه الآية الكريمة، فإذا أنت طبقته وصلت إلى السعادة، وخلصت من كل شقاء.

وقد بدأ تعالى بكلمة: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا..}**ليبين لك أن الإيمان أصل السعادة والخير، وبدونه لا سعادة ولا حياة طيبة لهذا الإنسان، وأَتْبَعَ تعالى الإيمان بعمل الصالحات:

---

١١٣ – سورة القمر: الآية (٥٤-٥٥)

١١٤ – سورة السجدة: الآية (١٧)

{..**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**..}لأن العمل الصالح ثمرة الإيمان فإذا آمن الإنسان حق الإيمان، انطلق في فعل الخيرات، وتطلبت وتشوقت نفسه إلى فعل الخير، كما يتطلب صحيح الجسم الطعام ويشتهيه، هذا وقد بيَّنا لك من قبل في مواضع عديدة من تأويلنا لسور القرآن الكريم (١١٥)طريق الإيمان، والذي سلكه أبونا إبراهيم عليه السلام، فارجع إليه، فإذا أنت تتبعت ذلك وآمنت وانطلقت في طريق الأعمال الصالحة، وفعلت الخير، فساعدت كل ذي حاجة، وأخذت بيد كل ضعيف، وأحسنت إلى كل مخلوق وإنسان، هنالك تكون ممن اكتسب هذه الحياة، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

ثم أتبع تعالى القول وختم السورة الكريمة بكلمة:

{..**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**}، وقد خص تعالى بالذكر التواصي بالحق والتواصي بالصبر، ليعرفنا أن ذلك من أعظم الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان، وأنها من أكبر أوجه الخير، وقد جعل ترتيبها بالذكر بعد عمل الصالحات، لأن العمل الصالح يقرب الإنسان من خالقه، ويجعل النفس مطمئنة برضاء الله عنها، وهنالك تدفعها ثقتها واطمئنانها إلى الإقبال على الله تعالى، فينطبع فيها الحق ويكتب على صفحاتها وحينئذٍ ينطلق لسانها في الإرشاد إلى الحق والتواصي بالحق، ممن آمن فعرف الحق وسلك الحق، وقد ذكر تعالى التواصي بالصبر في أواخر السورة لتعلم أن آخر ما يصل إليه الإنسان المؤمن هو التواصي بالصبر، لأنه بإقباله على الله وشهود حنان الله ورحمته، ورؤية جانب من عطفه تعالى ورأفته بخلقه، يرى أن كل ما يسوقه تعالى لعباده، إن هو إلا محض فضل وعطف

---

١١٥ – وكافة كتب العلّامة تشير إلى طريق الإيمان الذي سلكه سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذجاً عملياً للوصول بالأصول وقد أُفْرِد فيه كتاب: (الإيمان أول المدارس العليا للتقوى). وكلها تبيّن طريق الإيمان.

وإحسان، ولذلك تراه يوصي الخلق بالصبر، ويعرِّفهم بربِّهم صاحب العطف والإحسان، ويذكِّرهم بأنَّ كلَّ ما يسوقه تعالى لهم منطوٍ على فضلٍ ورحمةٍ وإحسانٍ، فما عليهم إذا هم مرضوا أو افتقروا، أو أصيبوا بمصيبة من المصائب، إلا أن يقابلوا ذلك بالصبر والرضاء، إذ النتيجة إن تاب، عطاء مذهل يناله الصابر التائب، لا يعلم مدى الخير العائد على هذا الإنسان والفضل المعدِّ له بعد الشفاء، إلا الله.

ويسمع المصلي المؤمن من الله تعالى دلالته وهدايته يتلوها على رسوله، وسواء كان المصلي منفرداً أو مقتدياً بإمام، أو إماماً لمن معه من المصلين، فهو في الحقيقة مقتدٍ برسول الله ﷺ ، وهو إمامه وإمام العالمين، والمتكلم بلسانهم بين يدي رب العالمين، وهو المخاطب من قبل الله تعالى، والله تعالى يخاطب هذا المصلِّي عن طريق رسوله ﷺ .

الركوع والسجود

وهنا يركع المصلي، وما الركوع في حقيقته إلا تعبير عن حال تعظيمٍ نفسي، إنه ركوع النفس، وأعني بذلك إعلانها عن ذاتها بأنها قدَّمت خضوعها وإذعانها، لما سمعته من أوامر ودلالة خالقها. يركع المصلي بين يدي الله العظيم، وقد شاهد طرفاً من عظمته تعالى اللانهائية، والتي كل عظمة بهذا الكون، ذرة من عظمته تعالى، ويقول في قرارة نفسه من بعد أن سمع سورة العصر، سمعاً وطاعة يا رب لأوامرك، وإذعاناً لدلالتك، وأعاهدك بأنني سأكون مطبقاً ما أمرتني به في هذه السورة، لقد عرَّفتني بمكانة هذا الرسول الكريم، وأنه الإنسان الأول لا بل أعظم إنسان عرف كيف يكتسب عمره الثمين، وأنا سأسير على منهجه، مطبقاً دلالتك على لسانه، وسأسعى في طريق الإيمان وعمل الصالحات، وسأجدُّ حتى أصبح ممن يتواصى بالحق، ويتواصى بالصبر.

وتسبح النفس خلال ركوعها في عظمة الله، وتشهد ألا عظَمةً إلا من عظَمته تعالى، وتستغرق في شهود جلاله تعالى، شهوداً قلبياً بمعية رسول الله ﷺ النفسية، ويعبر اللسان عن هذا السبح النفسي وذلك الاستغراق في الشهود بكلمة (سبحان ربي العظيم)..يكررها ثلاثاً مع الإمام ﷺ ، ويتدرج بهذا التكرار في ذلك الشهود من حال إلى حال، وتطمئن النفس بشهود عظمة صاحب الجلال والجمال، والذي عظَمةُ الكون ذرة من عظمته جلَّ شأنه. ثم يرفع المصلي رأسه من الركوع وكأنه يسمع البشارة من رسول الله ﷺ بالاستجابة كلمة: (سمع الله لمن حمده)..، وهو في الحقيقة إنما يعبر أيضاً عن حال نفسي، لقد حمد الله تعالى في الركوع على دلالته وهدايته، وكان يرى برؤية إمامه ﷺ وهو في ذلك الحال، أن الله تعالى معه محيط به، قريب، ولذلك قال مردِّداً: (سمع الله لمن حمده)... أي رب قد سمعت ما جال في نفسي وما دار في خلدي من حمدي لك، ثم ينطلق اللسان ويكرر فيقول: (ربنا لك الحمد)...

ثم يسجد المصلي برفقة رسول الله ﷺ القلبيَّة، "وما السجود في حقيقته" إلا طلب المعونة من الله بواسطة ومعيَّة رسوله الكريم ﷺ ، فالمصلي بركوعه أعلن وقدم خضوعه لأوامر الله، وحمد الله على دلالته، وفي السجود إنما يتطلب من الله تعالى، أن يمده بالتبعية بقوة وأن يعينه على تطبيق تلك الأوامر، فلا حول لأحد ولا قوة إلا به تعالى. وكلمة (سبحان ربي الأعلى وبحمده).. لتاليها ﷺ .

ويجلس بعد السجدة الأولى " ثم يعود إلى السجود" كما يعود الظامئ الهيمان إلى ارتشاف الماء العذب القراح، أو كالذي تمتع بشم زهرة زكية، إلى تكرار الاستنشاق. قال تعالى مشيراً إلى السجدتين، السجدة الأولى والثانية: {...**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً** (١٠٧).. **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** (١٠٨).. **وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً**}[١١٦]فإذا استقرت تلك الدلالة التي سمعها في الركعة الأولى في قلبه، وإذا صح عزمه على التطبيق وثبتت تلك الدلالة في نفسه، فهنالك يقوم للركعة الثانية.

إنه "يقوم ليقف بين يدي ربه من جديد" فيستمع إلى أوامر جديدة من ذكر الله الحكيم تكون له نبراساً في حياته، وهدى إلى طريق سعادته. ويقرأ الفاتحة بذلك الحال الذي قرأها فيه في الركعة الأولى مقتدياً بإمامه ﷺ ، فإذا ما انتهت القراءة، وأمّن على مطلب إمامه سائلاً الله تعالى الإجابة على ذلك المطلب، فهنالك يجيبه الله تعالى بما يتلوه على رسوله أيضاً وهو منصت مستمع إلى أوامر الله تعالى ودلالته وهي تتلى على الرسول ﷺ . والحقيقة كل الحقيقة، أن التسبيح كله للإمام ﷺ الذي يخاطبه تعالى بقوله: {**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**}[١١٧]

---

١١٦ – سورة الإسراء: الآية (١٠٧-١٠٩)

١١٧ – سورة الواقعة: الآية (٧٤)

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}[118]سبّح هذا المصلي والمصلين معك، بشهود فضلي وإحساني ورحمتي وحبي وحناني، وتسييري الخيّر للجميع.

ما تيسَّر من القرآن الكريم

وعلى سبيل المثال نورد السورة الكريمة التالية وهي قوله تعالى:

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١).. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢).. وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣).. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤).. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥).. يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦).. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧).. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}[119]

ونكرر ما كنا أوردناه عن التعريف بكيفية القراءة، تثبيتاً وزيادة في البيان فنقول: المتكلم في الحقيقة بهذه الآيات هو الله سبحانه، والمخاطَب بها رسول الله ﷺ ، والمصلّون يستمعون الخطاب بالتبعية {..**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**}[120]والله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ ، بلِّغ من معك من المصلين، وعرِّفهم بذلك اليوم العظيم، يوم تزلزل الأرض زلزالها الأخير، وهنالك تُخرج جميع من دفن فيها ليقفوا للحساب بين يديّ، ويفزع الإنسان إذ ذاك، وذلك ما عبرت عنه كلمة: **{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١).. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}**. ثم يتلو رسول الله ﷺ آية: **{وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا}**. فيرى الإنسان المؤمن الذي استأنس بربه بصلاته وبنور إمامه ﷺ يقول له:

---

١١٨ – سورة الأعلى: الآية (١)

١١٩ – سورة الزلزلة: الآية (١–٨)

١٢٠ – سورة النحل: الآية (٤٤)

أن الأرض ليس فيها شيء إلا ما يمدّها به ربها، وأن الخيرات كلها منه تعالى، لا منها، فليس فيها خير، لولا إمداد الله، وأن الخير كله لممدها بالمطر وما فيه من حيوينات والثمر وأشعة الشمس والحياة. وتحدثه الأرض يومئذٍ بأخبارها عنه، وتعرفه بما فعل على ظهرها في دنياه من أعمال، يُنْطِقها الله تعالى بذلك ويأمُرُها به، فلا تكتم شيئاً عن هذا الإنسان، ثم يصدر الناس ويقفون للحساب بين يدي الله، وليُرى كل امرئ ما قدَّم في الحياة الدنيا من أعمال، فمن يعمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير يره هناك، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. وهنا يركع المصلي ثانية كما ركع من قبل، وبنفس ذلك الحال يحمد الله تعالى على أن يقَّظه ونبَّهه وحذَّره من الانحراف والطغيان، ويعاهد على العمل الطيِّب، واجتناب كل شر وإيذاء. ويتمم الركعة الثانية ثم يجلس للتشهد ويقعد القعود الأول، ونشرح المقصود من القعود ونبيِّن معنى ما يقوله المصلي فيه، فنقول:

بعد أن وقف هذا المصلي بين يدي ربه في الركعة الأولى والثانية يستمع إلى دلالته تعالى، ويتعرف إلى أوامره ونواهيه، وبعد أن ركع خاضعاً حامداً، وخرّ ساجداً مستعيناً يقعد "القعود الأول"، وما القعود في حقيقته إلا قعود النفس، إنه قعودها وهي منغمسة بنور ربها مستغرقة في حضرة الله لتعبر وتسمع من الإمام الأعظم ﷺ ، عما جرى لها في هذه الصلاة من ذوق وعلم ومعرفة، ولتعرف بأن كل ما حصلت عليه، إنما هو فضل من الله.

التحيات

التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إلّه إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيدٌ.

ويتلو المصلي أول ما يتلوه في القعود بادئاً بكلمة: (التحيات).. التي يعلِّمه إياها إمامه ﷺ . والتحيات جمع مفرده تحية، والتحية مصدر لفعل حيا، تقول حيا الله فلاناً تحية، أي أعطاه الحياة آناً بعد آن ولحظة إثر لحظة، فإذا هو دوماً قائم بهذا الإمداد، مفتقر إلى ذلك التجلي الإلّهي، الذي لا يعيش الإنسان ولا يمكن أن يستمر له وجود وبقاء إلا به.

ذلك معنى التحية، إنها الهبة الدائمية للحياة، والإمداد المتواصل بالحياة، وليس ذلك المعنى الذي أوردناه بقاصر على الجسم، بل إنما يتناول النفس أيضاً، فهذه النفس وهي ذاتنا المعنوية الشاعرة، لها وجود، كما للجسم وجود.

وإذا كنا نشبه الجسم بفانوس، فما النفس إلا تلك الشعلة المضيئة إن حصل لها نور فيه، بإقبالها وصلاتها، وإذا كان قيام هذا الفانوس والهيكل المادي وأعني الجسم، متوقفاً على إمداد الله وتجليه، فكذلك الشعلة المتوهجة، وأعني بها النفس، لا بدّ لها ليدوم توهُّجها وتوقُّدها، من إمداد يسري فيها ويستمر متخللاً كل ذرة من ذراتها. ذلك معنى دقيق إذا أنت تتبعته وخلوت إلى نفسك تنظر وتفكر، تستطيع أن تتذوقه وتدرك طرفاً منه. وهنالك تعلم أن حياة نفسك وقيامها وبقاءها بالله، وأنه سبحانه أقرب إليك من نفسك، إذ به قيام هذه النفس، وبه حياتها ودوام وجودها، فإن كان

المصلي مؤمناً واجتهد حتى نال التقوى، وهي الاستنارة بنور الله عن طريق رسول الله ﷺ ، فهنالك يسمع الخطاب من رسول الله ﷺ وهو يُعلِمه بأن هذه الحياة القلبية، والنعيم السامي العالي، الذي أُغدق عليه، والأحوال والأذواق والإشراقات القلبية بهذه الصلاة، إنما هي من الله تعالى، فأنت بصحبتي القلبية نلت كلَّ هذا عن طريقي، لكن كل هذا الفضل وهذه الحياة هي من حضرة الله، فالله تعالى المعطي وأنا القاسم، فهو تعالى الحي، ومنه وحده الحياة الطيبة المتزايدة التي نلتها. هذا للمتقين، وبشر المؤمنين.

(التحيات المباركات).. ويشهد المصلي المتقي بذلك الشهود المحمدي، ويرى تلك الرؤية وهنالك:

تشعر النفس بحياة من نوع جديد، حياة القرب العالي من الله والإقبال عليه، إنها تشعر بنعيم القرب والإقبال، وتجد أن دوام هذا النعيم العالي وبقاءه لا يكون إلَّا بالله، فيسري معنى التحيات وهو دوام الإمداد بالحياة، من الجسم إلى نعيم النفس الذي تذوقته من قبل في بدء الصلاة، والذي تتذوقه الآن بالقرب من الله تعالى وأنسها العالي به، وقعودها في حضرته بمعية رسوله ﷺ .

ويتمِّم المصلي التلاوة التي يتلوها عليه ﷺ بقوله: (الصلوات الطيبات لله).. فيعرِّف نفسه بأن الصلوات وهي جمع صلاة، هي التي تعرِّف الإنسان وتجعله يتذوق هذه المعاني ويشعر بها.

إنَّه أيضاً يقول لنفسه، التحيات المباركات وهذا ما أشعر به، الصلوات هي التي أوصلتني إلى هذا الشعور، وجعلتني أتذوَّقه وأتعرَّف إليه. والطيبات من الأعمال وصالحاتها نتاج الإيمان بالله التي طابت بها نفسي، وهي التي أنشأت لي الصلة مع الله بالحق والاستحقاق بصحبة رسوله ﷺ ، وجعلتني أشعر بتلك الحياة، فعرفت آفاقاً جديدة وتذوَّقت ما تذوَّقت.

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته

وهنا يدرك المصلي عظيم فضل رسول الله ﷺ ، الذي كان سبباً في حصول الحياة والتحيات المباركات الطيبات المتزايدة من حضرة الله. إذ لولاه ﷺ ، ولولا نوره، لما صلّى هذا المؤمن هذه الصلاة، التي بها لذَّة المعرفة بالله، والذوق العالي بشهود طرف من كمالات أسمائه تعالى، ولما عرف كيف يقف بين يدي الله، ولما استطاع أن يتعرَّف إلى دلالة الله.

لقد جاهد ﷺ ، رغم كل ما لاقاه من معارضات وإيذاء، وقضى حياة مليئة بالمتاعب والمصاعب، حرصاً على هذا الإنسان، ليأخذ بيده من الظلمات إلى النور، ومن العمى والضلالة، إلى العلم والهدى والإيمان.

{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[١٢١]يدرك المصلي حينما يصلي، بتلك الحياة العالية التي تذوقتها نفسه، كما يدرك حينما يجد نفسه قد نالت حقيقة تلك المعاني العالية التي وعاها قلبه، أن ذلك كله كان بفضل هذا الرسول الكريم الرحيم، وهنالك يقول معبراً بلسانه عمّا شعرت به نفسه من التقدير والعرفان بالجميل، تجاه هذا الرسول العظيم، "ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله": (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)...

وتفيد كلمة: (السلام عليك).. خطاباً لحاضر، يشاهده المتكلم التقي المستنير بنور رسول الله ﷺ ، الذي أوصله لنور الله ويراه، فسلمت نفسه من عمى البصيرة ومن الإعراض عن الله تعالى.

---

١٢١ – سورة التوبة: الآية (١٢٨)

فما دام هذا المصلي قد أضحى في حضرة الله وقد قعد بين يديه تعالى، يعبِّر عن أذواقه ومشاعره التي تذوَّقها في هذه الصلاة، وفي مثل هذه الحال تراه يشاهد نفسه دوماً عاكفة بمعية رسول الله بالله.

إنه يشاهد رسول الله ﷺ في تلك الحضرة العلية، ولذلك يوجِّه الخطاب إليه ﷺ بصيغة المخاطب فيقول: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).. ومن لم يخاطب رسول الله ﷺ ، بمثل هذا الحال وبمثل هذا الخطاب، فلا تزال صلاته ناقصة وبحاجة إلى جدٍّ كبير وإيمان بالله، مع صدقٍ واهتمام. ونفصِّل بعض التفصيل في شرح معنى هذه الكلمة فنقول:

السلام: هو الأمان والحفظ من كل هم وغم وحزن، إنه حفظ وأمان في الدنيا، وحفظ وأمان في الآخرة. يتفضَّل به تعالى على كلّ من آمن به، واستقام على أمره، وصاحبت نفسه نفس رسول الله ﷺ ، وبما أن رسول الله ﷺ هو أول من استسلم لله واستقام، لذلك يخاطبه المصلي مقراً ومعترفاً له بما ناله ﷺ عند ربه بكلمة: (السلام عليك أيها النبي)...

كما تتضمن أن الأمان عليك لنا نحن المصلين معك ولمن حولك من المؤمنين المستقيمين على أمر الله، أن تكلأنا بألا تعدو عيناك عنَّا كما أمر تعالى: {..**وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**..}[122] فيُحفظوا من بلاءات الدنيا وعذاب الآخرة.

هذا وبما أن أعظم تجلٍّ نوراني ينصب من الله تعالى على قلبه الشريف ﷺ ، وبالتفاته إلى المصلِّين حقّاً يسري النور العظيم على أولئك الصادقين، فتفرّ عنهم شياطين الإنس والجن فهم بمعيّته ﷺ في أمان، وهم بمعيَّته ﷺ دوماً منتصرون ولن يهزموا. {**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**}[123]

---

١٢٢ – سورة الكهف: الآية (٢٨)

١٢٣ – سورة غافر: الآية (٥١)

وتشير كلمة: (ورحمة الله).. إلى ما يتفضَّل به الله تعالى على عباده المؤمنين من السعادة النفسية والحياة الطيبة، والرفعة في الشأن في الحياة الدنيا، وما يغمرهم به تعالى بواسطة رسوله الرحيم السراج المنير لقلوبهم، من نعيم الأنس به والقرب من ذاته العلية، والشهود لجماله تعالى وكماله في الدنيا وفي الآخرة. كل ذلك بناء على ما قدَّمه هؤلاء المصلّون المشاهدون، من سعي إيماني وأعمال صالحة، وخدمات إنسانية جليلة وتضحيات كبيرة، واجتنابٍ للمنكرات وأهلها.

وحيث أن رسول الله ﷺ ، هو أول من فاز بالرحمة الإلٓهية بأعظم قدر، وأكبر منال، فكان رحمة للعالمين، لذلك يعطف المصلي على كلمة: (السلام عليك أيها النبي).. بكلمة (ورحمة الله).. أما (البركات).. فهي جمع بَرَكة. والبركة هي الخير الكثير المتتالي الذي لا ينقطع توارده.

وتتوالى الفيوضات والتجلّيات الربانية على أنفس المصلّين الصادقة مع الله تعالى والمخلصة لرسول الله ﷺ ، وتتتالى الخيرات الإلٓهية بمقدار ما جاهدت في سبيل الله، وبمقدار ما بذلت من تضحيات في مجال نشر الحق، والأخذ بيد الآخرين إلى الإيمان. وكلما كثر هؤلاء المؤمنين، زادت تلك الخيرات الإلٓهية على هذا المؤمن وتتالت، وانهالت البركات من الله تعالى عليه دون انقطاع.

وبما أن رسول الله ﷺ هو أعظم الخلق نفعاً للخلق، وأحرصهم على هداية الناس، وأكثرهم بذلاً وتضحية في سبيل إيصالهم إلى الحق، لذلك يضيف المصلي إلى خطابه السابق ملحقاً بكلمة: (وبركاته).. معترفاً له ﷺ بذلك، من بعد أن تذوق هذا وعاينه، وذلك بعض ما نفهمه من كلمة: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)...

ويسمع الرسول الكريم من المصلي هذا السلام، فيخاطبه ﷺ ويقول:

البشارة

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)..: أي السلام من الله علينا أنا وأنت أيها المؤمن، وعلى كل من صلحت نفسه من عباد الله واستعدت لهذا الفضل الإلّهي العظيم، أسوة واقتداءً بالأنبياء والمرسلين الصالحين المصلحين، فبابه تعالى واسع، وفضله سبحانه عميم، يتسع لكل ذي نفس صادقة وقلب منيب.

وهنا وعند سماع المؤمن "هذه البشارة" من رسول الله ﷺ ، ينتقل إلى حال أعلى من أحوال الشهود. إنه يشهد أن لا إلّه إلا الله ويتمم بقوله (وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله).. تعبيراً عن إيمانه وشهوده لمقام رسول الله ﷺ ، ويشير بإصبعه اليمنى وهي الشاهدة، رافعاً عند النفي، خافضاً عند الإثبات، لفتاً لنظر النفس، وليتوافق الجسم في أعماله وحركاته مع النفس، ومن المقرر أن حركات الجسم وأوضاعه تنعكس على النفس وتنطبع فيها، وبذلك يتقرَّر ذلك الحال في النفس، ويثبت ذلك المعنى، فإذا خشع قلب المرء، خشعت جوارحه.

وآخر مرحلة من مراحل الصلاة وأعلى مواقف العبد فيها، إنما هو في تلك البرهة التي يجلس فيها بعد التشهد، يصلي على النبي ﷺ (الصلوات الإبراهيمية)...

الصلوات الإبراهيمية

فما المراد يا ترى من الصلاة على النبي ﷺ في آخر الصلاة بهذه الصيغة دون غيرها؟.

ولماذا نطلب من الله تعالى ونسأله أن يصلي على سيدنا محمد، كما صلى على سيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام؟.

الغاية من هذا الطلب، والمراد من الأمر بالصلاة على النبي بهذه الصيغة، تعريف المصلي أن اجتماع النفس بنفس رسول الله ﷺ ، يجب أن يكون في الكعبة، البيت الحرام. فقبلة رسول الله ﷺ ووجهته إلى الله، إنما هي من هذا البيت الذي كان قبلة سيدنا إبراهيم ﷺ ، ووجهته منه.

وهكذا فأنا حينما أقرأ الصلوات الإبراهيمية، إنما أطلب من الله تعالى أن يصلي على سيدنا محمدٍ في هذا البيت وأعني به الكعبة، كما صلى تعالى فيه على سيدنا إبراهيم من قبل. إني أطلب من الله تعالى أن يديم صلاته على رسوله في هذا البيت، أي أن يديم فيه تجليه على تلك النفس الطاهرة الزكية، لتظل نفسي على علم بمكان تلك النفس العالية وتتَّجه إليها، فتستشفع بها وتعرج بمعيتها إلى الله، فلا تنقطع عن صحبتها ولا تضل عنها.

ولو أن المصلي لم يعرف الموضع الذي تعرج منه نفس الرسول الزكية الطاهرة إلى الله، ولو أن رسول الله ﷺ ما علَّمنا أن نصلي عليه بتلك الصيغة، لضاعت أنفسنا عن الاجتماع بنفسه، ولما استطعنا أن نقبل على الله بمعيته، بل لانقطعت وجهتنا عن الله، ولما عرفنا كيف نصلي تلك الصلاة العالية.

وهذا يوضِّح لنا قوله تعالى آمراً المؤمنين جمعياً، أن يقبلوا عليه من هذا البيت من بعد أن أمر رسوله الكريم ﷺ بذلك فقال تعالى:

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ..}(١٢٤)

كما يوضِّح لنا قوله ﷺ مبيّناً شرف الكعبة إذ يقول:

«..أشرف المجالس ما استُقبل به القبلة» (١٢٥)

فما شُرِّفت الكعبة ذلك الشرف إلا بتجلي الله تعالى فيها على نفس رسوله الكريم ﷺ ومن معه من نفوس المؤمنين. **{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ..}**: ليقبلوا على الله منه. {..**لَلَّذِي بِبَكَّةَ**..}: تَبكُّ منها الخيرات. {..**مُبَارَكاً**..}: فيه الخيرات المتتالية. {..**وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)**..}: يهتدي منه إلى الله ويصلي. **{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ..}**: يعرفها من دخله وأبصر بنور الله، حصلت له التقوى. {..**مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ**..}: الطريق الذي سلكه سيدنا إبراهيم. {..**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**..}(١٢٦)

وملخص القول:

إن الله واسع محيط بكل شيء، والنفس إذا اتجهت إلى هذا الامتداد الواسع فإنها لا تستطيع التركيز، بل الضياع، فهي كالسراج الذي إن وضعته في فلاة فإن نوره يتبدد بلا شك، ولكن إذا ما حصرتَ نوره ضمن زجاجة، فإن هذا النور يصبح أقوى، وكذلك فإذا لم تُحصر النفس في مكان معيَّن ومحدّد، فإن تركيزها يتبدد ويدخل إليها الكثير من الخواطر والهواجس، إضافة إلى وجود روحانية نفس رسول الله ﷺ المنيرة والتي تنقله إلى الله. فالاتجاه إلى الكعبة ليس هو القصد النهائي، ولكن القصد من سكنَ الديارَ، حيث أن نفوس الأنبياء والمرسلين، كلها تعرج إلى الله من البيت

---

١٢٤ – سورة البقرة: الآية (١٥٠)

١٢٥ – أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك عن ابن عباس.

١٢٦ – سورة آل عمران: الآية (٩٦-٩٧)

العتيق، بمعية الرسول الكريم ﷺ ، وهو الذي عرج بهم إلى الله ليلة إسرائه عندما تقدم بهم إماماً.

إذن: جعل تعالى نظاماً للإقبال عليه:

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ..}الله تعالى جعل لك قانوناً:

تفكر بالمربي بلا إلّه إلا الله، يحصل لك ميل وحنان وإيمان وذوق، لكن لا يحصل لك شهود للخير خيراً والشر شراً. لكن الله تعالى جعل لك قانوناً حتى تشاهد الخير خيراً فترغب فيه، والشر شراً فتجتنبه، فلا تعود تقع في إثم، هذا القانون: الاتجاه من البيت للدخول على الله.

ما هو قانون الإقبال؟. لابدَّ من الدخول على الله من البيت. {..**مُبَارَكاً**..}: كثير الخيرات المتزايدة، ترى فيه الخير من الشر، فتعود عليك الخيرات. {..**وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**}: كل من دخل منه اهتدى إلى الله، إذا آمن بالمربي اهتدى ودخل منه برفقة رسول الله ﷺ على الله. **{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ..}**: دالة على حنان الله وعطفه ورحمته: إن دخلت من البيت رأيت الأسماء الإلّهية، ورأيت خيرك من شرك، إذ صار لك شهود بأسماء الله الرحيم القدير العادل... الفعال، عندها تذهب لعرفات بالحج فتحصل لك المعرفة، لكن الطريق أن تقوم بما قام به إبراهيم عليه السلام. {..**مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ..}**: إن سلكت الطريق الذي سار فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفكرت بالمربي عرفت لا إلّه إلا الله. كيف آمنَ آمِنْ مثله. {..**وَمَن دَخَلَهُ**..}: دخل بالصلاة بصحبة رسول الله ﷺ على الله. {..**كَانَ آمِناً**..}: حيث يرى الخير من الشر، فلا يقع في إثم ولا يصيبه مكروه. ولا يمكن لشيطان أن يتلاعب به، وبالآخرة لن يحزن على الدنيا، إذ يرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ..}**[١٢٧]{..**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**..}: طلب منكم أن

---

١٢٧ – سورة السجدة: الآية (١٧)

تدخل نفوسكم هذا البيت، وتحصل لكم الحجّة على أنفسكم وعلى الشيطان، من هذا البيت. {..**مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً..**}[١٢٨] الغني يذهب لكن الفقير إن فكر فاكتسب إيماناً وأقبل: فقد حاز إيماناً ومعرفة أكبر من ذلك الذي ذهب للحج. **فالصلاة على الناس جميعهم، أن تكون صلاتهم بقلوبهم في الكعبة، برفقة رسول الله ﷺ من هذا البيت {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً..}**[١٢٩] أي طريقاً وملجأ ومرجعاً للناس للإقبال على الله، حتى يصير هذا الإنسان كاملاً وأهلاً للإحسان، كل شيء له أصول: فمن يريد أن يكون إنساناً ليدخل الجنة، فهذا هو الطريق، من دخل منه حصل له الأمان.

والبيت الحرام الذي هو محرَّم على أي نفس خبيثة وُلوجه والعروج منه إلى الله، ومن دخل البيت وارتبطت نفسه بنفس الرسول ﷺ ، شعر بالاطمئنان الأبدي ومن حصل له ذلك تنعتق نفسه من الدنيا، وتكره ما يستعظمه الناس وما يشغلهم، وهذه هي الصلاة الصحيحة. لكن لا بدَّ من الإيمان من البدء بالتفكير بالتربية، فيتوصل إلى كلمة لا إلّه إلا الله عندها يستقيم. بالاستقامة تثق نفسك، بالثقة تقبل على الله، بهذا تصبح من أهل الكمال، عندها تحب رسول الله ﷺ وتقبل بمعيَّته على الله. {..**وَمَن كَفَرَ..**}: أعرض عن الله فنكر، ما فعل الخير والإحسان، ما فكر بالتربية ولا سلك هذا الطريق. {..**فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**}: عنه. أنت لا تضره بشيء لكنه يريد سعادتك، وسرورك. فما هو تعالى بحاجة للإنسان، بل خلقك لسعادتك، فمن اللازم أن تعرف ربك، وترى حنانه ورحمته لتتوجه نفسك إليه لتنال.

ذروة القرب من الله تعالى

---

١٢٨ – سورة آل عمران: الآية (٩٧)

١٢٩ – سورة البقرة: الآية (١٢٥)

أما وقد وضحنا لك المراد من الصلاة على النبي ﷺ بهذه الصيغة، فلنبين الحال الذي يمر به المصلي أثناء الصلوات الإبراهيمية فنقول:

لقد أصبح المصلي الآن في هذه المرحلة الأخيرة مرحلة التشهد، في الذروة، ذروة القرب من الله بالنسبة لجميع مراحل الصلاة. إنه الآن في حال الإحسان، يشهد أن لا إلّه إلا الله بمعية رسول الله ﷺ ، ويعبد الله وهو يراه الرؤية القلبية، التي يشهد بها طرفاً من أسماء الله الحسنى بهذا السراج المنير ﷺ .

ثم يبدأ عروج المصلي وهو في هذا الحال من الإقبال خلال الصلوات الإبراهيمية، إنه عروج النفس في منازل القرب من الله، من حال إلى حال أعلى، فكلما قال كلمةً، سما درجةً منذ بدء الصلوات الإبراهيمية حتى آخر كلمة من كلماتها. فإذا قال كلمة: (اللهم).. سمت نفسه ناظرة إلى أسماء الله الحسنى، إلّه العالمين ومدير شؤون الكون كله، وانغمست في لجَّة من ذلك النور الإلّهي.

وهنا يقول المصلي: (صلِّ على سيدنا محمد).. وهناك وبهذا النور الإلّهي المنغمسة نفسه فيه، يشاهد مزيداً من مقام رسول الله ﷺ ، ومزيداً من مقام مرشده الداخل بمعية رسول الله ﷺ على الله فيقول: (وعلى آل سيدنا محمد).. يقول ذلك وهو في بيت الله، ويعبِّر عن هذا الحضور في البيت بكلمة: (كما صلَّيت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم)..: أي أدِم اللهم تجليك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد في هذا البيت، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم من قبل فيه.

وهنا يصبح المصلي في حال أسمى من حاله الأول، لقد رأى مزيداً من مقام رسول الله ﷺ ، فزاد استمساكاً به واستشفاعاً وارتباطاً بنفسه الشريفة، وهنالك يعرج إلى حال أعلى من أحوال القرب إلى الله بمعية الرسول الكريم، فيقول ونفسه ملتفتة إلى الله كلمة: (وبارك)..: أي زدْ يا رب من المؤمنين المصلين من هذا المكان مكان البيت.

وهنا تتغمس النفس من جديد بذلك النور الإلّهي انغماساً أعلى من سابقه ويتمم بقوله: (على سيدنا محمد).. فيمر بمثل ذلك الحال الذي مرَّ به من قبل ولكن بدرجة أسمى وأرفع، ويضيف بقوله: (وعلى آل سيدنا محمد).. وهو في هذا الحال حباً وارتباطاً بمرشده، ثم يقول: (كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم)..: ليعرِّف نفسه دوماً أنه ما يزال في بيت الله، وأن الاجتماع برسول الله إنما هو في هذا البيت، ويتطلب من الله بكلمة: وبارك على سيدنا محمّد أن يزداد المؤمنون المستشفعون برسول الله ﷺ ، والمقبلون بمعيته على الله من هذا البيت، كما ازداد المقبلون منه على الله بمعية سيدنا إبراهيم عليه السلام من قبل.

وهنا وبهذا الحال النفسي الذي أضحى فيه المصلي في هذه الصلاة، يعلم أنه ما أمره تعالى بهذا، إلا لتسمو نفسه إلى ما سمت إليه، وتشهد طرفاً من كمالاته تعالى وجميل صفاته، إلى جانب ما تفضل به تعالى عليه من دلالة وأوامر تكون نبراساً لسعادته في دنياه وآخرته، وعندئذٍ يعبِّر بلسانه عمّا وجده في نفسه من معاني الحمد والتعظيم والتقدير لله فيقول: (في العالمين)..: أي أن بابه تعالى مفتوح للعالمين، لكل صادق فكّر وعقل فاستنار. (إنك حميد مجيد).. يقول ذلك وهو يرى أن فعله ورحمته تعالى تجاه العالمين وما في الكون من عوالم لا نهاية لها، كل فعله تعالى تجاهها يحمد عليه، لأنه كله فضل ورحمة وإحسان متساميْن متعاليْن بلا حدٍّ ولا انتهاء، وكل شهود أعلى من سابقه، وأجلّ وأجمل.

ويعبِّر بكلمة مجيد، عن أسمى ما يمكن أن تعبِّر به نفس عن مشاعرها تجاه خالقها، من ذوق لذلك الفضل الإلّهي العالي، وتقدير لتلك الرحمة العالية اللامتناهية، وشهود لكمال الله الذي مهما أدركت منه النفس، فما هي بمدركة إلا مثقال ذرة، من بحر واسع خضم لا حدّ له ولا انتهاء لجلال وسعة إدراكه وعظمته.

إنه يعبّر عن ذلك بكلمة: (مجيد)..، والمجيد أي العالي، الذي لا حدَّ له ولا انتهاء لعُلاه. ولكل امرئ في هذه الكلمة مشاعر وأذواق، ولكلٍ شهود وتقدير وتعظيم، ولكلٍ مراتب ودرجات، كلٌّ بحسب إيمانه، وكلٌّ بحسب قربه وشهوده، ثم يدعو المصلي ببعض الأدعية المأثورة كقوله ﷺ : (ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، رب اغفر لي ولوالديَّ، ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً)... أو الدعاء الذي أوصى به ﷺ أن يدعو به في آخر صلاته: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)...

أما وقد انتهت الصلاة، ويريد المصلي التقي الذي توصل بالإقبال على الله من البيت الحرام أن يخرج منها، فمن الواجب أن يسلِّم ذات اليمين ملتفتاً بعنقه ناظراً إلى رأس الكتف قائلاً: (السلام عليكم ورحمة الله).. ومن ثم يعتدل الرأس كما كان، ويعقب المصلي ذلك السلام ملتفتاً إلى يسراه كما فعل في التسليمة الأولى. فعلى من يسلم المصلي يا ترى؟. وما المراد والمقصود من ذلك؟.

إنه يسلِّم على كافة أنبياء الله ورسله الذين أشرقت نفوسهم بالإسراء بمعية النبي الأمي من البيت الحرام فهم عليهم السلام أي الأمان ومن ارتبط بهم فهو دوماً في أمان، لأنها تكون صلاة المؤمن بكمالها حين يؤم إلى رسول الله ﷺ بالكعبة المسجد الحرام تطبيقاً لقوله تعالى: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩).. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...}**[١٣٠]

وهناك تجتمع نفوس كافة الأنبياء والمرسلين، وكافة من تابعهم بإحسان تؤم بواسطة النبي الأمي ﷺ من الكعبة إلى الله، فحين ينتهي من الصلاة فإنه يسلم على كافة

---

١٣٠ – سورة البقرة: الآية (١٤٩-١٥٠)

هذه الأنفس عموماً التي سلِمت وصاروا من أهل الجنة ونجوا من النيران، لأن من صلى حقيقة بالمسجد الحرام، حرم على جسمه النار، وعلى نفسه الشقاء والخسران.
ونوجز القول عن التحيات في بحث الصلاة:

إيضاح حوار التحيات

((التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله))..

إن هذا المؤمن المصلي حقيقةً، كما أمر الله برفقة رسول الله ﷺ النفسية، قد انغمست نفسه في بحور المحبة الإلّهية الشريفة، وارتشفت من العلوم القدسية ما شاء الله أن ينال، وبحسب صدقه وإحسانه، فذاق من كرم الله وفضله نعيماً دونه كل نعيم مادي، فذاب حبّاً وهياماً برسول الله ﷺ ، وعلم أن هذا العطاء المدهش، ما كان ليناله أبداً لولا هذا السراج المنير والوسيلة العظمى [١٣١] والشفيع له بالصلاة، (هذه هي الشفاعة الحقة، ولأمثال هذا المصلي تدوم الشفاعة يوم القيامة ابتداءً من الدنيا لأبد الآباد)..، عندها تتجه نفس هذا المؤمن السائر والطالب للتقوى، شكراً لحبيب الله، والإنسان عبد الإحسان، وقد جُبلت القلوبُ على حبِّ من أحسن إليها، هنا يأتي دور رسول الله ﷺ بإعلام هذا المؤمن المصلي، أن هذه الحياة الكبرى التي نالتها نفسه بالصلاة، وما تشتمل على تحيات رائعة بديعة كثيرة، نالها وينالها المصلي الصادق المستشفع به، هذه التحيات المتزايدة بالسمو، المباركة الطيبة، والتي تطيب النفس فيها من أدرانها، فتغدو كلها كمالات إنسانية، والصلوات الكثيرة التي حظيَ بها هذا المصلي الصادق، وأكثر وأكبر منها نالها وسينالها بصلواته، والله تعالى أكبر وأكبر، وكلها من الله ليست منه ﷺ ، يُعلمه بذلك (أي ليست من رسول الله ﷺ بل هي من حضرة الله)..، والله المعطي، وهو ﷺ القاسم، فالتحيات المباركات والصلوات الطيبات لله. فيحوِّل هذا المصلي إلى الأصل، إلى الله، ويدفع عنه كلَّ شرك، فهو رسول الله تعالى، وليس رسول نفسه ﷺ ، وبذا تدخل نفس المصلي على الله، خالق ومبدع كل خير وعطاء.

---

١٣١ - **{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ..}** سورة الإسراء: الآية (٥٧).. ورسول الله ﷺ أقرب البشر إلى الله تعالى.

عندها يقرُّ المصلي بالحق، ولكن لا ينسى الفضل، فضل هذا الرسول الرحيم، «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» [١٣٢]، فيجيبه المصلي المؤمن المتقي: **(**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**)**..، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، والخيرات كلها قطعاً لا تأتي إلّا من السلام جلَّ شأنه، والسلام: الأمان لديك، وبها يتجلَّى تعالى لنا عليك، وكذا الرحمة والبركات لا تتم لنا إلا بك أيها النبي، وعن طريقك، فأنت الطريق إلى الله، وأنت ينبوع الخيرات من الله، وأنت السراج المنير بنور الله، فيك يُرى الحق جلّ وعلا، وبك تتم العطاءات، وقد أعطاك الله تعالى الكوثر، أي الثراء الكوني كله لكافة المخلوقات، بوجهتك الكليّة إلى الله قلباً وفكراً، وبما نلته من عطفٍ عظيم علينا وعلى عباد الله جميعاً، ومَنْ صاحَبَكَ مستشفعاً بك، فهو في أمان بكنف الرحيم الرحمن، إذ السلام تتضمن الأمان كما أشرنا، الأمان من بلاءات الدنيا وعذاب الآخرة، فلا خوْف ولا حزن بعدها للمصلي. وهذا قول الله عزَّ وجل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ..}**[١٣٣]

فيجيبه رحمة العالمين ﷺ : **(**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**)**..، وهم السادة الأنبياء والمرسلون ومن استشفعوا به ﷺ أجمعين، وهم قدوتنا بأمر الله: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ..}**[١٣٤] عندها نشهد الشهادتين، فإن كان شهودك يقينياً قوياً، فهو ﷺ الذي يشهد لك بقوله: **(**أشهد أن لا إلَه إلا الله**)**..، وبمشاهدتك مشاهداته العظمى تُجبه بقولك: **(**وأشهد أنك رسول الله**)**..، أما إن كنت بعدُ بمرتبة

---

١٣٢ – رواه أبو داوود والترمذي.

١٣٣ – سورة الحديد: الآية (٢٨)

١٣٤ – سورة الأنعام: الآية (٩٠)

أقل فإنك تقول لنفسك: (أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله)..، فقد أرسل لي تعالى خيرات الصلاة وبركاتها بواسطته ﷺ . ثم يتلو ذلك بالدعاء الإبراهيمي.

تلك هي صورة مختصرة عن الصلاة، وضعناها لك من البداية حتى النهاية، وذلك إذا كانت الصلاة ثنائية مؤلفة من ركعتين، وهنالك تفصيلات لبعض نقاط لا تظنن أننا نستطيع أن نشرحها لك جميعها، فتلك الأحوال والمشاهدات بل قل السياحة النفسية في كمالات الحضرة الإلّهية بمعية رسوله الكريم ﷺ ، أعلى وأرقى من أن يعبر عنها ناطق بفم أو كاتب بقلم. ولا يَدْري إنسان قدر عظيم تلك الرحلة القلبية، والمنّة الكبرى بمعية رسول الله ﷺ فأعنّا على نفسك بسلوك طريق الإيمان، وأقم الصلاة حسب ما يجب أن يقيمها مؤمن يرجو الله واليوم الآخر، وهنالك ترى أننا ما وصفنا لك إلا غيضاً من فيض، وقطرة من غيث، ومع ذلك نذكر لك بعض الخطوط العريضة والنقاط الضرورية

مفارقات وتساؤل

فنقول:

يسأل بعض الناس عن سبب عدم قراءة المصلي بعد الفاتحة شيئاً من القرآن في الركعة الثالثة والرابعة من الفرض، واكتفائه بما قرأ في الركعتين الأوليتين منه.

يسأل آخرون عن سبب اختلاف عدد الركعات في الصلوات الخمس، وعدم توافق هذه الصلوات المفروضة في اليوم والليلة في عدد الركعات، وما يتبع ذلك في السنن. وهنالك أناس لا يعرفون الفرق بين السنة والفرض، وما المراد بالسنة القبلية أو البعدية التي ترافق الفرض.

وهناك أسئلة أخرى عن (صلاة العيد والجمعة والخطبة).. التي تخص كلاًّ منها، وأسئلة عن مواقيت الصلاة، وأسئلة ثم أسئلة، نكتفي الآن بالجواب على بعضها،

وندع لك الباقي تشاركنا في الجد والبحث، ومن يؤمن بالله يهد قلبه، فإنه سبحانه يؤتي الحكمة من يشاء: {..**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**}. (١٣٥)

*ونبدأ بالإجابة عن السؤال الأول، فنقول: السبب في اقتصار المصلي على القراءة بعد الفاتحة في الركعتين الأوليتين من الفرض، إعطاء النفس الفرصة حتى تتمثَّل ما قرأته، ويثبت في قرارتها ما سمعته من دلالة الله وأوامره. فلكل شيء في هذه الحياة طاقة وحدٌّ معين، ويكفي النفس بين صلاة وصلاة ما ألقي عليها في الركعتين الأوليتين من القرآن من الدلالة والموعظة، فتعمل على تطبيقه بعد أن تفقه معاني الآيات وتسعى في تأديتها، وتتعرف إلى ما انطوى عليها من حكمة ومعانٍ قيِّمة في الركعتين التاليتين، تفكيراً وشهوداً واستعظاماً.

الاختلاف بالأعداد

*أما سبب الاختلاف في عدد الركعات فإنما يتوافق العدد ويتناسب مع أحوال النفس من حيث استعدادها وأهليتها لتلقي الأوامر، ويكون ذلك الاستعداد النفسي متناسباً مع حال النفس في انصرافها إلى الأعمال، ومع حال الجسم والزمن، وقد رأينا من قبل ما بين النفس والجسم من علاقة وثيقة. فإذا ما استيقظ الإنسان في الصباح كانت النفس هادئة صافية البال، غير مشغولة الفكر بما في الحياة من مشاغل ومشاكل، وتساعدها راحة الجسم ونشاطه على الوعي السريع، لذلك يكتفي المصلي بأن يصلي ركعتين خفيفتين سنَّةً، سرعان ما تستعدُّ النفس خلالهما للوقوف بين يدي الله في صلاة الفرض، وهي ركعتان فقط بسبب ما بيّناه.

---

١٣٥ – سورة البقرة: الآية (٢٦٩)

أما في صلاة الظهر، فلا بدَّ أن تكون مدة الوقوف بين يدي الله أطول أمداً وأوسع، فالوقت بين الصبح والظهر طويل، والنفس في هذا الوقت منهمكة في أعمال الحياة، منصرفة إلى حل الكثير من المشاكل، والساحة النفسية متخمة بالمشاكل والاشتباكات والعلائق مع الناس فلا بدَّ من تصفية النفس من مشكلاتها لينطبع الحق ومعاني كلام الله في ساحتها ولا بدَّ لصلاة الفرض في هذا الوقت من مهلة، تتمثل النفس خلالها وتعي ما قرأته في الركعة الأولى والثانية، ولذلك كانت صلاة الظهر والعصر رباعية غير ثنائية.

وبما أن انصراف الإنسان وقت الظهيرة للأعمال أشد وأعظم من وقت العصر لقصر الوقت بينهما، لذلك كانت سنة الظهر القبلية، وكان من الضروري أن يلحق المصلي بفرض الظهر أربع ركعات سنَّة، توثيقاً لحضور النفس بين يدي الله في تلك الصلاة، وتثبيتاً لتلك المعاني التي مرَّت في الفرض وانصرافها عن الدنيا ومشاغلها.

أما وقد انصرم اليوم، وقضى الإنسان ما عليه من مشاغل هامة في الحياة، وودّع النهار وأعماله، فصلاة المغرب لا تحتاج إلى سنة قبلية، ولا تتطلب تثبيت المعاني بعد الركعة الأولى والثانية أكثر من ركعة واحدة، لذا كانت الصلاة ثلاثية ولا تحتاج لأكثر من ركعتين سنَّة بعدية.

ويعود الإنسان بعد الغروب من عمله خارج المنزل إلى الأسرة، ولا بدَّ له في منزله من مشاغل لكنها ليست كمشاغله في النهار، ولذا كانت صلاة العشاء رباعية، لا تحتاج إلى أكثر من ركعتين سنَّة بعدية، كما كانت سنتها القبلية الرباعية مستحبة غير مؤكدة.

ويريد الإنسان الآن أن يودّع اليوم ويستريح من مشاغل الحياة بالإيواء إلى فراشه، فيضيف إلى صلاة العشاء صلاة الوتر يقنت فيها ويدعو بدعاء القنوت، حيث

الوجهة والمناجاة والانصراف بالكلية إلى الخالق. ثم ينام المرء على وجهة وإقبال والتفات تام إلى الله والرسول، وما دام قد نام وهو على هذا الحال من الوجهة، فعين النفس لا تنام ووجهتها لا تنقطع عن الله، وإن انقطعت عين الجسم عن الدنيا ونامت عن هذا الكون، والمؤمن يدعو بصرف ما أهمه وأغمه، وما أهم المسلمين وأغمهم، يدعو بالهدى لكافة الخلق، أنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم.

وهكذا فلكل صلاة سننها وركعها المناسبة، وذلك بعض ما نفهمه من الحكمة في هذا التباين والاختلاف، بسبب تأثير الزمن على النفس وصفائها أو انشغالها بمشاغلها. لتتخذ بوجهتها إلى ربها سبيلاً، والصلاة جامعة لكافة خيرات القلب، ثم خيرات الدنيا والآخرة.

لِمَ سنن الصلاة؟.

أما وقد أتينا على طرفٍ من الحكمة في اختلاف الصلوات في عدد ركعات الفرض والسنن، فلا بدّ لنا من كلمة نبيّن فيها المراد من السنة سواء كانت قبلية أم بعدية فنقول: السنة هي الطريق والنظام، يتبعه الإنسان ويطبقه في بلوغ هدف معين. وبما أن الإنسان المؤمن يريد في صلاته أن تحصل له الصلة بخالقه، وبما أنه يريد أن يقف بمعية الرسول ﷺ ، ليستمع إلى دلالات ربه وإرشاداته، لذلك لا بدّ للنفس من الأهلية التامة، والاستعداد المعنوي حتى تحصل لها هذه الصلة، ويتحقق لديها ذلك الاستعداد، وحيث أن انصراف النفس وانشغالها بأعمالها الدنيوية، يُضعف بعض الشيء من وجهتها والتفاتها نحو الخالق، لذلك كان من الضروري للمصلي حتى تحصل له الوجهة التامة في صلاة الفريضة أن يمرّ بفترة انتقالية، تستجم النفس خلالها شيئاً فشيئاً، وركعة بعد ركعة، حتى تصفو من كدورات الدنيا ومشاغلها، وتصبح في حال تستطيع معه أن تفقه آيات الله، وتدخل الدخول الصحيح في حضرته تعالى.

وهكذا فالسنة القبلية فترة انتقالية، وصفٌ تحضيري، والمعوَّل كلُّ المعوَّل على الفرض، ومن لم يصلِّ السنَّة القبلية، ظلت صلاته ناقصة الكثير من الوجهة، فاقدة الكثير من الفائدة، وتستطيع في كثير من الأحوال أن تعد صلاة الفرض بدون أداء السنة القبلية سنَّة لا فرضاً، وتحضيراً لا درساً، وتمهيداً لا موضوعاً.

أما السنَّة البعدية ومن الواضح ما كنا ذكرناه عنها من قبل، لكننا نوجز ونسلسل الترتيب في البحث فنقول:

في السنَّة البعدية رأب[١٣٦] لما يقع من الصدع في صلاة الفرض، وإتمام لما يعتريها من النقص، وهي من جهة أخرى إطالة لزمن الوقوف بين يدي الله والأنس به، ومعونة على تمكين النفس من الوعي والتوسع في معاني الآيات وما فيها من الدلالة، وكلما ازداد أحدنا في صلاته من خالقه قرباً، ازداد في إدراك أسرار التشريع وفهم المراد الإلّهي، ولكلٍّ إيمان ومعرفة وعلم، كلٌّ بحسب إيمانه وصلته ووجهته ومحبته. ولكلِّ مؤمن لذة سامية في صلاته وذوق وشهود.

وننتقل الآن إلى الكلام عن صلاة الجمعة وسبب فريضتها، والمراد من (جعلها نائبة عن صلاة الظهر يوم الجمعة).. فنقول:

---

١٣٦ – رأب الصدع: أي أصلحه والمقصود هنا تدارك ما قد يفوت على المصلي من صلاة الفرض.

صلاة الجمعة

صلاة الجمعة صلاة مفروضة، ومن المفروض فيها أن تكون مع الجماعة، وأن يكون الإمام هو الخليفة أو نائبه، والغاية من ذلك تحقيق الاجتماع بالإمام، ولو مرة واحدة بالأسبوع يستمع المؤمن خلال ذلك إلى إرشاده، ويصغي إلى بيانه الذي يدعوه فيه إلى ربه وتطبيق أوامره، ويحثَّه على تقواه تعالى وطاعته، وفي ذلك المجلس ما فيه من علم ودلالة ومعرفة، فإذا سمع المؤمن ذلك ووعاه، قام إلى الصلاة بمعية إمامه، ودخل على الله تعالى برفقته وصحبته، وهنالك وبهذه الصحبة يكون القرب والإقبال وهنالك الوعي الصحيح وشهود الحقائق، وكلاهما برسول الله، بالله متَّصلان، به مستنيران. لذلك الإمام والمؤتم يؤمِّنان كلاهما بعد قراءة الفاتحة للإمام الحق الأعظم ﷺ ، بقول آمين.

وهكذا ففي الخطبة، دلالة وإرشاد وبيان، وفي الصلاة، رفعة وصحبة وشهود لحقائق ما تسمعه من إرشاد وبيان، وإذا شُبهت الخطبة بالنسبة لقلب المصلي بتهيئة وإمداد بالزيت لسراج القلب، وإعداد للإضاءة والاشتعال، ففي الصلاة الإيقاد والاستضاءة وإقبال المصلي على الله تعالى بصحبة رسول الله ﷺ ، وإنارة القلب بنور الله، قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩).. فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[١٣٧]

وإذا كانت الصلوات الخمس بمثابة محطات صغرى، يتموّن القلب فيها بما يلزمه للسير في طريق الإيمان ما بين صلاة وصلاة، فصلاة الجمعة محطة كبرى، يَتَمَوَّن خلالها بما يلزمه خلال أسبوع كامل، من جمع قلب مع إمام صادق، أو تقي مستنير

---

١٣٧ – سورة الجمعة: الآية (٩–١٠)

بنور الله، وإذكاء لشعلة المحبة وحطٍّ لما تراكم على هذا القلب من مشاكل وبُعد وأدران، فإذا النفس صافية، وإذا القلب مستضيء، وإذا الإيمان ساطع متلألئ، وإذا الصلة وثيقة متينة بالله.

صلاة العيدين

وتسألني عن السبب في جعل صلاة العيدين متقدمة عن الخطبة عكس ما نفعله في صلاة الجمعة، فأقول: في خطبة الجمعة تمهيد وتهيئة وإعداد للوقوف بين يدي الله، أما في صلاة العيدين، فالصلاة حاصلة بسبب الصيام أو الحج، والوجهة إلى الله متمكنة، والإقبال عليه تعالى متوفر، والنفس قائمة بين يديه تعالى، والقلب ناظر إلى سبحات الجلال والجمال، فلا ضرورة لخطبة سابقة وإعداد.

لقد صام المصلي رمضان، وأتبع صيام كل يوم بعشرين ركعة تراويح يصليها في المساء، وأقبل وما فتئ يقبل، حتى استحكمت الصلة، وانكشف عن القلب الحجب، وشاهد المصلي في أواخر رمضان في ليلة القدر، طرفاً من جلال الله وعظمته، وعرف الكثير من رحمة الله. لقد انقلب الأعمى بصيراً، والجاهل عالماً، والماشي في الظلم مستضيئاً مستنيراً، وحيي القلب بالله، وزال العناء والقلق عن النفس، فأضحت مطمئنة بالإيمان، آوية إلى كنف الله، متنعمة بالقرب من الله، فما عليها الآن إلا أن تذهب إلى المسجد صباح العيد، تكبِّر الله على ما هداها، وتشكره على ما أعطاها بتراويح رمضان، وتقف بين يديه فتستهل نهارها بالصلاة لله، ثم تتلو الصلاة الخطبة يذكر فيها الإمام ويتحدث للمصلي عن فضل الله وجميل عنايته، وبالغ رعايته بهذا الإنسان.

فما الخطبة والحالة هذه إلا تعبير عما يجده المؤمن في نفسه، ويشعر به من خالص الشكر والامتنان بما ناله بليالي رمضان، وما الخطبة إلا اعتراف وإقرار بفضل الله، ولذا كان رسول الله ﷺ في صلاة العيدين يكبِّر عدة تكبيرات، يستهل بهنَّ الخطبة، كما كان يكبر في الصلاة ذاتها، وما هذه التكبيرات إلا اعتراف وإعلان وإقرار بفضل الله تعالى على الإنسان، وقد جاءت الآيات في القرآن الكريم مبينة مشروعية صلاة عيد الفطر وفق ما بيناه، فذكر تعالى من بعد أن أورد الأمر

بصيام رمضان، أنه ما أمر الإنسان بهذا الصوم إلا ليصل إلى تلك النتيجة العالية من الشهود والإيمان:

{..**يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ..**}ثم أعقب تعالى ذلك ببيان سبب مشروعية صلاة العيد والتكبيرات فقال تعالى: {..**وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**}(١٣٨)

وإذا كانت صلاة عيد الفطر قد شرعت لما بيناه من أسباب، فصلاة عيد الأضحى وبحسب ما تبيَّن من آيات الله تعالى إنما شرعت أيضاً لمثيل هذا السبب، وهي في الحقيقة تعبير النفس عن أذواق وشهود وإيمان، ذاقته وشهدته وآمنت به، بسبب ما أدته من مناسك الحج وما طبقته من أعمال، فكان من نتائج ذلك أن حصلت لها التقوى، ودخلت على الله بمعية رسول الله ﷺ ، فدعاها الواجب إلى الوقوف بين يدي الله لصلاة العيد والجلوس للخطبة بعد الصلاة، تذكر وتتذكر وتعبر عن مشاعرها، تجاه خالقها ومربيها، وما عاينته من فضله عليها، إذ نقلها بهذا الحج من حال إلى حال: من الإيمان بالغيب إلى الشهود العالي، ومن المعرفة إلى العلم، ومن حياة القلق إلى الاطمئنان بأكناف الله، والقرب من تلك الذات العلية، والعكوف في حضرتها، عكوفاً لا ترضى عنه ببديل مدى الحياة.

وقد وضَّحت الآيات الكريمة هذه النواحي، وبيَّنت مشروعية صلاة عيد الأضحى فقال تعالى:

{..**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ..**}وتلك هي صلاة العيد، وتمم تعالى بقوله:

{..**وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ**}(١٣٩)وتلك هي الخطبة. ولله الحمد على ما تفضل به وأنعم، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

---

١٣٨ – سورة البقرة: الآية (١٨٥)

أحكام الصلاة

أما وقد فصَّلنا في الصلاة هذا التفصيل، وتعرَّضنا إلى الكثير من النقاط، فمن تمام الفائدة قبل أن نغادر هذا الموضوع، أن نتكلم عن أحكام الصلاة بجمل عابرة، تعرِّف "المصلي بمعنى الفرض والواجب والسنَّة والمكروه تنزيهاً والمكروه تحريماً، والمبطل والمفسد" فنقول:

كل صلاة يصليها الإنسان، سواء كانت سنة أو واجباً أم فرضاً، تتخللها أعمال وأقوال، حددها الفقهاء والأئمة الأعلام، وصنَّفوها فجعلوا بعضها فرضاً، وبعضها واجباً، وبعضها الآخر سنَّة. والمصلي الذي يريد أن تكون صلاته تامة، يجب أن يراعي هذه النقاط الثلاث ويأتي بها كاملة، والحقيقة أن هذه الأعمال والأقوال ما هي بالأمور الشكلية، ولا بحركات وألفاظ ظاهرية، بل إنما ترمز كل حركة وكل كلمة إلى سرٍّ من أسرار التشريع، وتتضافر مع بعضها في تأمين الحصول على الصلة بالله، والدخول بمعية رسول الله ﷺ ، والوصول إلى الثمرة المطلوبة من الصلاة، ومن لم يقم بهذه الأحكام، فما هو بمستطيع أن يصل إلى الثمرة المطلوبة من الصلاة كاملة. ومن قام بها ظاهراً، ولم يدرك سرّ ما انطوت عليه من حقائق، فما نال من صلاته إلا الأجر القليل.

وأفصِّل لك في هذا الموضوع بعض الشيء فأقول:

من فروض الصلاة الوضوء "للنشاط" وهو الأساس، والطهارة من النجاسة، وستر العورة، واستقبال القبلة، ودخول الوقت، وتكبيرة الإحرام، والقيام والقراءة، والركوع والسجود، والقعود الأخير، ومن الواجبات أن يتقيَّد المصلي في القراءة بقراءة الفاتحة وسورة قصيرة أو آيةٍ في الركعتين الأوليتين من الفرض، والاطمئنان في الركوع والسجود، وكذلك من الواجبات ضم الأنف إلى الجبهة بالسجود والقعود الأول،

---

١٣٩ – سورة البقرة: الآية (١٩٨)

والنهوض فوراً بعد القعود الأول، وقراءة التشهد في القعودين، وجهر الإمام في الصلوات الجهرية، وختم الصلاة بالسلام، وقراءة دعاء القنوت في صلاة الوتر وتكبيرة القنوت.

سنن الصلاة

أما سنن الصلاة فكل عمل يقوم به المصلي في صلاته، مما لم نذكره في عداد الفروض والواجبات، ومن ذلك دعاء الاستفتاح الذي يدعو به المصلي في بدء الصلاة، والتسبيح في الركوع والسجود، وتكبيرات الانتقال، والصلوات الإبراهيمية، يقرأها المصلي في الصلاة بعد التشهد في القعود الأخير، وكذلك الدعاء المأثور يختم به المصلي صلاته، إلى غير ذلك من الأعمال الموجودة في المطوَّلات من كتب الفقه.

تلك هي أحكام ثابتة، يجب أن تتوفر في كل صلاة، يخطئ كثيرون ممن لم يصلوا إلى تقوى وعلم في فهمها، فيحسبون أن الإنسان لا تثريب عليه إذا ترك بعض السنن، وأن المعوّل كل المعوّل على الفروض.

والحقيقة أن السنن بالنسبة للفروض، كالغمد واللحاء بالنسبة لعود الشجر، وبالقشرة التي تحيط بالثمرة تدوم الحياة في الغصن وتبقى الثمرة محفوظة، ما دام الغمد واللحاء محيطاً بالغصن، والقشرة سليمة مشتملة على الثمرة. فإذا ما زال الغمد وانكشفت القشرة يبس الغصن وفسدت الثمرة، وإذا كانت السنة كما ذكرنا من قبل، بمعنى الطريق والنظام الذي يسلكه الإنسان ويتبعه، في سبيل بلوغ هدف معين، فسنن الصلاة هي الطريق، وهي الأعمال التي يتطلب المشرِّع من المصلي أن يقوم بها، حتى يصل إلى لبِّ الصلاة وحقيقتها، فيحصل على الصلة بربه، ويتوصل إلى فهم أوامر الله ونواهيه، مما يتلوه تعالى على رسوله، فيسمعه هذا المصلي المؤمن في صلاته من لذيذ الخطاب وجليل الأحكام.

وعلى وجه المثال نقول: يتعذر على المصلي أن يقرأ الفاتحة على تلك الصورة التي كنا بيَّناها من قبل وسهولة الاستشفاع برسول الله ﷺ خلال قراءة الفاتحة، إذا هو لم يفتتح صلاته بدعاء الاستفتاح وهو قوله ﷺ : «**وجهت وجهي للذي فطر السموات**

والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين» [١٤٠] وهذا الدعاء السامي هو خاص برسول الله ﷺ بالأصل، منطبق على حاله ﷺ العالي الرفيع، فإن تمثَّلت نفسك به، فستتحقق صلاتك الكاملة ونوره ﷺ يوصلك بالله، ثم دعوت هذا الدعاء المحمدي لنفسك، فذلك الخير والكمال لصلاتك القلبية الحقيقية، والتقدير لهذا الرسول الكريم ﷺ : **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}**[١٤١]لأن السماع من رسول الله ﷺ يجب أن يسبقه طهارة وصفاء نفسي، مبني على إيمان ذاتي وتقوى ووقوف بين يدي الله، وهو ما يتحصل بدعاء الاستفتاح، لتلتفت النفس بالتقدير له ﷺ ، فلا يستطيع المصلي أن يفقه معاني الفاتحة، إذا هو لم يتلُ دعاء الاستفتاح، وهكذا جميع السنن وسائل للفروض، وطرق مؤدية إلى الحصول على الثمرة من الصلاة.

أما الواجبات فمعناها أن المصلي إذا حصلت له الصلة بخالقه ومربيه والثمرة من الصلاة، نتجت عن ذلك أحوال ملازمة مستقرة في نفس المصلي، وكانت ميزاناً له تعرِّفه بمبلغ ما استفاد من صلاته، فمن ذلك الاطمئنان، فإذا حصلت الصلة واستقرت في النفس الفائدة، لازمها اطمئنان النفس في حضرة الله في الركوع والسجود، وتبع ذلك سكون الأعضاء الظاهري، واستقرارها قلباً، خلال هذه الفترات "فإذا خشع القلب خشعت الجوارح".

وكذلك الأمر بالنسبة للقعود الأول، فإذا ما وعت النفس آيات الله التي مرت بها في الركعة الأولى والثانية، أنتج هذا الوعي قعود النفس في حضرة الله، وعبَّر الجسم بقعوده عن قعود النفس، وهكذا سائر الواجبات، أما الفروض، فهي الأحكام

---

١٤٠ – سنن أبي داوود رقم /٧٥٩/.

١٤١ – سورة الأحزاب: الآية (٢١)

الضرورية اللازمة، وهي الأعمال التي لا بد للمصلي من أن يقوم بها، حتى يحصل على ما يتطلبه من نتائج العبادة، فهو لا يعي من صلاته شيئاً إذا هو جاء إليها بدون وضوء، لأن صفاء النفس وإقبالها على الله في صلاتها، يتطلب نشاطاً من الجسم، والطهارة من النجاسة إن وُجدت، وبدونها لا يستطيع المصلي أن يلتفت بنفسه إلى الله، لانشغال النفس بما تراه وما تشعر به من وساخة في الجسم، لاسيَّما لأصحاب الأعمال التي تعرِّض الجسم للشوائب الخارجية، وكذا سائر الفروض، فالقراءة إذا لم يؤدها المصلي في الصلاة، لا يفقه شيئاً من دلالة الله التي من أجلها شرعت الصلاة وكان الأمر. وهكذا فالسنن وسائل لتحقيق الحصول على الثمرة.

والفروض أمور ضرورية بدونها لا تحصل الثمرة، والواجبات نتائج وعلامات، تعرِّف المصلي بما توصَّل إليه من فائدة، وكل هذه الأحكام وحدة متصلة لا ينفصل بعضها عن بعض، ويجب أن يلازم بعضها بعضاً، كما تلازم القشرة الثمرة، والورق الشجرة، والخضرة والبهاء الحياة السارية فيهما، وكل ذلك يرمز إلى شيء واحد ويُشير إلى كلٍّ لا يتجزأ بعضه عن بعض، إلى حصول الاتصال بين المصلي وربه بالوسيلة ﷺ .

المكروهات والمفسدات

أما وقد تكلمنا عن السنن والفروض والواجبات فلننتقل إلى المكروهات فنقول:

المكروهات: هي أعمال كره المشرّع للمصلي القيام بها، لأنها تجعل صلاته ناقصة بعض النقص، غير وافية بالفائدة المطلوبة. فلو أن امرءاً كان يتناول بعض الأطعمة وأصابها قطرات من البترول، فلا شك أن هذا الطعم الغريب يجعل الطعام مكروهاً لديه.

وبمثال آخر نقول: لو أن إنساناً أراد أن يهدي صديقاً له رأساً من الغنم وكانت بهذا الرأس علَّة من العلل، بأن كان مقطوع الأذن أو مكسور القرن أو مفقود العين أو هزيلاً. فكل هذه الأعراض وإن كانت لا تذهب بحياة هذا الحيوان، إلا أنها تجعله مكروهاً في نظر صاحبه.

وهكذا سائر المكروهات في سائر العبادات، إن هي إلا نواقص وأعراض تنتاب العمل فتجعله أقل فائدة لصاحبه، وأضعف أثراً في نفسه، مما لو كان تاماً كاملاً، فإن كان هذا العَرَضُ ضعيف الأثر، كان مكروهاً تنزيهاً، أي يجب أن يتنزه الإنسان ويتباعد عن الإتيان به في صلاته أو عبادته.

ومن ذلك في الصلاة مثلاً مدافعة البول والغائط أو الريح قال رسول الله ﷺ :

«لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ أنْ يُصَلّيَ وَهْوَ حَقِنٌ حَتّى يَتَخَفَّفَ» [١٤٢]، والصلاة إلى نجاسة أو نار أو وجه آدمي أو حيوان، وكذا سائر الأعمال التي تضعف وجهة الإنسان إلى خالقة في صلاته كلها، أعمال مكروهة كراهية تنزيهية، فإذا ما اشتدت مدافعة البول أو الغائط وجعلت المصلي لا يعي ما يقول، كانت الصلاة مكروهة تحريمياً، أي بصورة تجعل المصلي يُحرم من فائدتها، ومن اللازم عليه إعادتها حتى يصل إلى الثمرة المطلوبة منها.

---

١٤٢ – سنن أبي داوود رقم /٩١/.

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ..}[١٤٣] فيه تحذير من السكر لأن الخمر محرم قطعاً عن المؤمنين فالمعنى هو: الستر عن الله قال تعالى: {..**وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى**..}[١٤٤] فإن أسكر المرءَ حبُّ الدنيا فستره عن الله وحجبه عن ذكر الله، ففي إقامة الصلاة تذكير وذكرى[١٤٥]:

{**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**}[١٤٦] ومن هنا يأتي معنى الإقامة، ففيها سر الصلاة وبها تصحو النفس، فإن دخلت الصلاة وعت كلام الله: {..**حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ**}أقبل لتفهم ما تقرأ، ليس هو بمحتاج إليك، أمرك بالصلاة لتطهر نفسك، لتسير على كلامه. حتى ترفع الغطاء عن وجهك فتعلم ما تقول. تلك هي كلمة وجيزة عن المكروهات، أما (المفسدات والمبطلات).. فإنما هي أعمال إذا حدثت في الصلاة، فإنها تقطع صلة العبد بخالقه، وتُحوِّله كل التحوُّل عن هذه الصلة، من ذلك الضحك في الصلاة، وتحويل الصدر عن القبلة، والكلام ولو بكلمة واحدة، إلى غير ذلك من الأعمال التي إذا فعل المصلي واحداً منها أو باشره، انقطعت الصلة بينه وبين الله، وتحوّل فكره وبطلت الصلاة، كما لو تعطَّل المحرك في سيارة، أو انكسرت إحدى عجلاتها أو انكسر الموجِّه، فكل هذه العوارض تعطل الحركة وتعدم

---

١٤٣ – سورة النساء: الآية (٤٣)

١٤٤ – سورة الحج: الآية (٢)

١٤٥ – انظر كتاب (درر الأحكام في شرح أركان الإسلام). "بحث إقامة الصلاة" للعلَّامة محمَّد أمين شيخو.

١٤٦ – سورة الذاريات: الآية (٥٥)

الاستفادة، وتحول دون الوصول إلى الهدف المقصود والغاية، وكذلك سائر مفسدات الصلاة ومبطلاتها.

هذا وإذا كان الأمر كما ذكرناه في المكروهات والمفسدات، وإذا كان وقوع عارض من الأعراض التي تقطع صلة الإنسان بخالقه ولو قليلاً، يفسد الصلاة ويبطلها، فما هو يا ترى حكم صلاة لا يعرف المصلي فيها لذّةً ولا طعماً من الوجهة إلى الله؟.

أفلا يجب عليه إعادتها، أفلا يجب عليه أن يبحث عن السبب الذي قطع صلته بخالقه خلال صلاته وإزالته، أفلا يجب عليه أن يهتدي إلى الأعمال الصالحة التي تنشئ هذه الصلة الطيِّبة، وتقيم الوجهة، وتجعله حاضر القلب متجه النفس منصرفاً عن الكون كله، مستغرقاً في النعيم بالقرب من الله في الصلاة؟. أليس ذلك هو واجب المؤمن، أليست تلك هي الصلاة الصحيحة، أو ليس ذلك هو لب الصلاة وحقيقتها؟. فالاتصال والصلة بمخلوق محبب لدى الإنسان كالابن مثلاً، أو بطيِّب الطعام أو الحلوى أو الثمرات والفواكه، تنشئ لذة وطعماً للإنسان، فكيف هي لذة وطعم الصلة والاتصال النفسي الحقيقي بالله، خالقها وخالق كل جمال وروعة وبهاء، وهي آثار بسيطة مما لدى الخالق الكريم؟!.

ومن لم يصلِّ تلك الصلاة المشحونة بالقرب من الخالق، المليئة بالوجهة والحضور مع الله وإرشاده، فما عرف من الصلاة إلا حركاتٍ وما وصل إلى حقيقة، وما نال من فائدة ذات شأن وقيمة: «**وليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها**»[١٤٧].

لكن إذا فكَّر الإنسان بالموت، وخشي سوء المصير، والتجأ لربه من خلال صنعه، أي آياته الكونية فآمن بربه، كما آمن سيدنا إبراهيم ﷺ، فإنه بإيمانه الذاتي التحقيقي، يحصل على صلة وصلاتٍ بالله، تتعاظم ذكراها بالصلاة، فيصلي حقيقة، وينال كل ما أوردناه عن الصلاة الحقيقية التي بها لذة ونعيماً، لو ذاقها الملوك

---

١٤٧ – كنز العمال: ج٣. ص٣٨٢. ح٧٠٥٠

لتخلَّوا عن ملكهم لينالوه، فما أعظم كرم هذا الرب الكريم الرحيم، على إنسان شاهد ونال من هذا الكرم والفيوضات الربانية: الإنسانُ المؤمن المصلي المرتبطة نفسه برسول الله ﷺ حقّاً ينالها.

الفصل الثاني

لابد لنا من الوقوف على بعض النقاط:

- هل سها رسول الله ﷺ بالصلاة؟!.
- وقوله ﷺ : «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»[١٤٨].
- ما المقصود بقوله ﷺ : «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[١٤٩]؟.
- وما المراد بقوله تعالى: {**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ..**}[١٥٠]
- وكلمة عن:
- صلاة قيام الليل والتهجد.
- صلاة الأوابين.
- صلاة الضحى.
- صلاة الاستخارة.
- صلاة الاستسقاء.
- الحكمة من الصلاة على الميت.
- الحكمة من الجهر بالصلاة ليلاً والخفت بها نهاراً.
- النظر في حالات قصر الصلاة بحالات الخوف في (الحرب والسفر)...
- أحكام تتعلق بصلاة المرأة في المسجد وحجابها في الصلاة.

---

١٤٨ – مسند الإمام أحمد ج٥.

١٤٩ – الطبراني في الكبير

١٥٠ – سورة الأعراف: الآية (٣١)

هل سها رسول الله ﷺ بالصلاة؟!.

فكما ورد بالحديث النبوي الشريف:

«صلَّى بنا النبي ﷺ إحدى صلاتي العشي، فصلّى بنا ركعتين ثم سلم،.. وفي القوم رجل في يديه طول يقال له ذو اليدين، فقال يا رسول الله: أنسيت أم قصرت الصلاة، قال: لم أنسَ ولم تقصر الصلاة»[151]. فذلك تعليم لمن يسهو بصلاته عن سجود السهو بنهاية الصلاة. أن يسجد المصلّي سجدتين، ثم يسلم على اليمين واليسار.

وفي حديث آخر: قوله ﷺ : **«أمَا إني لا أنسى ولكني أنسَ لأشرِّع»**[152].

وعندما سأله أصحابه: **«أسهوت أم قصرت؟. قال ﷺ : لم أسهُ ولم أقصر وذلك إثر سجوده ﷺ سجود السهو»** أي: كلٌّ ذلك لم يكن، بل الله تعالى أمره أن يعلِّم الصحابة هذا التشريع للعالمين من بعدهم، إذ مَنْ دون الأنبياء معرضون للسهو بالصلاة.

* * *

أما قوله ﷺ : **«يا بلال أرحنا بالصلاة»** [153]

فإن الصلة بالله تغسل القلب غسلاً، وتزيل الهموم والغموم والأحزان من قلب المؤمن، قال رسول الله ﷺ : **«أرأيت لو كان بفناء أحدكم نهر يجري يغتسل فيه كل**

---

١٥١ – سنن النسائي ج٣.

١٥٢ – موطأ الإمام مالك رقم /١/١٠٤/.

١٥٣ – مسند الإمام أحمد ج٥.

يوم خمس مرات، ما كان يبقى من درنه؟. قال: لا شيء. قال: فإن الصلاة تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن»[١٥٤]

ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه. وخير لقاء بالله الصلاة:

«**إن الملائكة تصلّي على أحدكم ما دام في مصلاه..**»[١٥٥] فمتى ارتاح القلب انعكست الراحة أيضاً على الجسم وعاد إليه نشاطه.

* * *

---

١٥٤ – سنن ابن ماجه رقم /١٣٦٧/.

١٥٥ – سنن النسائي ج٢.

جعلت قرة عيني في الصلاة

– ما المقصود بقوله ﷺ : «جعلت قرة عيني في الصلاة»[١٥٦]

إن أقصى مُنى حبيب الله ﷺ أن تسعد البشرية، والسعادة بالله، ولا تتم إلا بالصلاة الحقيقية التي هي معراج المؤمن، وفيها الخير كله والنعيم القلبي والشهود السامي العالي ونوال الخيرات، وزوال الأدران والميول الخبيثة والشريرة من النفس، فيغدو المؤمن بالصلاة الحقيقية كالملائكة، بل أعلى منهم، فإن صحت صلاة العبد فقد نال ﷺ كل الرضا، حتى أنه ﷺ ليبكي بكاء الفرح حين يصلي العبد الصلاة الحقيقية، ففيها الشفاء من كل داء، وفيها نوال الصفات والمكرمات جميعها، ويصادق على ذلك قوله ﷺ «**تارك الصلاة لا خير فيه**»، والصلاة جامعة لكل خير.

* * *

أما قوله تعالى: **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}**[١٥٧]

يأمرنا تعالى أن نفعل المعروف الذي تتزين به النفس عند الصلاة لتقبل على ربها، فالله ينظر إلى قلوبنا ولا ينظر إلى صورنا، فكلما أراد الإنسان الإقبال على الله، يعمل معروفاً ليستطيع الإقبال، ويذكر ما قدم من الإحسان الذي تتزين به النفس، وذلك عند كل صلاة وطلب.

فالعمل الطيب زينة الله التي أخرجها لعباده، وفعل الإحسان الذي تطيب به النفس وما يعود على فاعلها بالسعادة من الإنفاق بأوجه الخير، فهي للذين آمنوا في الحياة

---

١٥٦ – الطبراني في الكبير

١٥٧ – سورة الأعراف: الآية (٣١)

الدنيا، حيث أنهم يفعلون المعروف والخير، وغايتهم رضاء الله خالصة نتائجها وأجرها لهم، والجزاء عليها غداً يوم القيامة.

صلاة قيام الليل والتهجد

قيام الليل: النفس تكون في صفاء بعد النوم، فركعتين تكفيها لتوجيه النفس إلى الله تعالى ونوال الخيرات.

أُمِرَ رسول الله ﷺ في قوله تعالى: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ..}**تهجد: تهيأ للخيرات: {..**نَافِلَةً لَّكَ**..}نافلة: غنيمة، بالليل تتعلم، بالنهار تطبق وتعرف، {..**عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**}[١٥٨]شفيعاً للعالمين تدل الناس على الحق ويُسعدك بهم.. ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. وقوله تعالى: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ..}**يتبين أن التهجد أيضاً صلاة قيام الليل.

أما صلاة قيام الليل وتفصيلها نرجع فيها إلى سورة المزمل، وإلى الطائفة التي كانت تشارك أيضاً رسول الله ﷺ عن بُعد مكاني (استشعاراً)..، وهم بالحقيقة أهل القرب القلبي من رسول الله ﷺ ، وقد شرح تعالى بسورة المزمل شرحاً وافياً كافياً مبيّناً فضائل قيام الليل.

{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً}[١٥٩]لما فيه من الصفاء النفسي والوجهة الصادقة الخالصة لله، وما ينتج عنها من إقبال على الله، وما ينتج عنها من إقبال على الله (والإقبال خير ما تشتهيه النفس).. وعروجٍ في النعيم والفضل الإلٓهي، وما يساورها من سعادة كبرى.

فتنطبع بالنفس صفات الكمال من حضرة الله، والفضائل والرحمة والحنان والعطف على عباد الله، وما يرافقها من مشاهدات نورانية، لأن الإنسان يقوم في الليل صافياً

---

١٥٨ – سورة الإسراء: الآية (٧٩)

١٥٩ – سورة المزمل: الآية (٦)

والناس نيام، فليس في منتصف الليل زيارات أو مواعيد، ولا يخطر بباله الطعام والشراب، ففي قيام الليل موسم المؤمن لنوال الفضل الإلَـهي، وفيه ربيعه، وحين تكون النفس في حالة الصفاء، ينطبع فيها الحق وهي بعيدة عن مشاغل الدنيا، وترى الحقائق بنور الله ورسوله ﷺ ، فتنطق بالإرشاد عن شهود، لا نقلاً دون عقل، ولا حفظاً للألفاظ.

صلاة الأوابين

والأوَّابين: لغة من آب إلى بلده أي رجع، وبالتشديد: هم الذين يردُّون الخلق إلى الله، وهي ست ركعات بعد صلاة المغرب وسنته، وهذه صلاة الصحابة الكرام الذين فتحوا قلوب العباد والبلاد للإسلام والسلام، ومن تابعهم من العظماء بالتمام، لأن الأوَّابين هم الذين يؤوبون بعباد الله الضالين إلى صاحب الرحمة والحنان، وهم مصلحو الأمم، وغايتهم هداية الخلق والعودة بهم إلى الحق جل وعلا، لأن هداية الإنسان هي أسمى الغايات وأعظم الأعمال وأحسن الإحسان. قال رسول الله ﷺ : **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»**(١٦٠)

فهؤلاء على صلاة الأوَّابين يحافظون، ودوماً لها متطوعون، لطموحهم لرضاء الله تعالى بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، والنجاة بهم من سعير النيران إلى السعادة والجنات.

١- فهم الذين يؤوبون بالخلق إلى الله بإخراجهم من الظلمات إلى النور.

٢- وإنما يدرك معناها الأتقياء والسادة الصحابة الكرام الذين رغبوا في اقتفاء منهاج الرسول بغية ردِّ الخلق إلى الحق، وكما أخرجهم رسول الله ﷺ من الظلمات إلى النور، فهم أيضاً عازمون على إخراج إخوانهم وأخواتهم من نسب أبيهم آدم وأمِّهم حواء عليهما السلام، وهؤلاء هم الأقلة المصطفاة.

٣- {...**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**}(١٦١)هؤلاء هم الشاكرون ولهم البشرى دون سائر البشر، إذ اتخذوا مسلك رسول الله ﷺ لهم مسلكاً، وهذا الصنف العالي من البشرية هو الصنف الإنساني، الذي استأنس بإيمانه بربه وبرسوله ﷺ ، وأحب هذا الأنس

---

١٦٠ - أخرجه أحمد من حديث معاذ.

١٦١ - سورة سبأ: الآية (١٣)

لإخوانهم من بني آدم عليه السلام، فهم حقاً لا خوف عليهم في هذه الدنيا لأن الله مولى لهم ولا هم يحزنون على فراقها، لأنهم ربحوها ربحاً عظيماً وفيراً، واستبدلوها بجنات وفراديس عند مليك مقتدر.

هذا المعنى والمغزى الذي فهمه الصحب الكرام ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، فكانوا هم الأطباء الحقيقيون لقلوب البشر، ومتى شفي القلب شفي الجسم، ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، ألا وهي القلب.

وقد ذكر تعالى هذا الثناء من الله تعالى: **{وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**[١٦٢]وكيف كان عليه السلام يرد الناس من الضلالة إلى الهدى والسعادة والحبور، واسمه سليمان: فحروبه عليه السلام رحمة وبالمسالمة وبالرغبة لهدايتهم لا لإراقة دمائهم، وقد بيّن لنا تعالى مثالاً عن حروبه الإنسانية الرحيمة في قصة دولة اليمن الضاربة وكيف أنه قلبها من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة والإيمان دون سفك قطرة دم واحدة، وما كان ملكه العظيم الذي لم يبارى بقوته الجبَّارة إلا محولاً للرحمة المطلقة، فالحقيقة أن كلمة الأوابين كما بيّنا عن سيدنا سليمان العظيم عليه السلام أنه أوَّاب، تُشير إلى تشرّب معان قلبية نالتها رسل الله عليهم الصلاة والسلام وشرَّبتها لصحابتهم الكرام، وهذا يتفق أن رسول الله ﷺ هو رسول المحبة المهداة، قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}**[١٦٣]وهو الذي علمنا صلاة الأوابين، لا مجرد حركات، ولكن لعقل وتشرُّب الرحمة في قلوبنا، فنرحم بها إخواننا في الإنسانية، بغض النظر عن نوع الدين أو العنصر أو الطائفة، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيضَ على أسود إلا بالتقوى.

* * *

---

١٦٢ – سورة ص: الآية (٣٠)

١٦٣ – سورة الأنبياء: الآية (١٠٧)

صلاة الضحى

ركعتين لأن الفترة طويلة بين صلاة الفجر وأذان الظهر ففيها وصل بالله خشية الانقطاع لطول المسافة بين الفجر والظهر، يقوم المؤمن أو المسلم بصلاتها، لتبقى صلة نفسه بربه على اتصال متين:

{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}[١٦٤]

وبذلك تكون هاتان الركعتان محطة استزادة وتذكُّر في أوج انشغال النفس في نهارها بالأعمال الدنيوية لكيلا يغفل عن ذكر الله بين صلاتي الفجر وصلاة الظهر.

* * *

---

١٦٤ – سورة المعارج: الآية (٢٣)

صلاة الاستخارة

تعريفها: صلاة الاستخارة ركعتان، ويفضّل أن تكون في صفاءٍ نفسي، كقيام الليل أو بعد الاستيقاظ، لتكون صلاته صحيحة ونفسه أنقى، لتطبع فيها الحقيقة من ربّ الحقائق، وذلك في الحديث القدسي الشريف: **(يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم...)..** [١٦٥]

وتتم حينما يعجز المرءِ عن إدراك الخير في أمر من الأمور، عندها يلتجئ بصلاته إلى من التجأ إليه الصحب الكرام رضي الله عنهم، إلى المصطفى ﷺ الذي علّمهم الكتاب والحكمة. فإن لم يصلْ إلى درجة أهل التقوى فإنّه يشعر شعوراً، إمّا بالانشراح والاطمئنان القلبي إلى تنفيذ الأمر الغيبي ويكون فيه عندها الخير، أو يشعر بالانقباض والضيق بتوجهه في الصلاة إلى هذا الأمر المعضل، فيعرف أنّ السمّ في الدسم، وأنّ هذا الأمر لا خير فيه، فيرفضه ويعلم أنّ الله سيمنّ عليه بخير منه.

وهناك دعاء يدعونه بصلاة الاستخارة: **(اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علّام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر "......." خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فيسره لي إلى ما تحب وترضى، اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر "......." شرٌّ لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه وقدر لي الخير حيث تشاء ورضني به، والحمد لله ربِّ العالمين)...**

* * *

---

١٦٥ – أخرجه مسلم في صحيحه والترمذي.

صلاة الاستسقاء

تعريفها: هي ركعتان من قلب صادق.

لمّا كانت الغاية من حبس المطر وما يؤول إليه ذلك من غلاءٍ في الأسعار، ونقصٍ في الأنفس والثمرات، وجوع وخوف من بعد أمن... لمّا كانت الغاية من كلّ ذلك أن يرجع الإنسان عن غيّه، ويرغب إلى ربّه تائباً عن المعاصي، كافّاً عن الشرور والآثام، مجتنباً أهلها، لقوله سبحانه وتعالى: **{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}**[١٦٦]أي يرجعون إلى جادة الصواب.

كانت صلاة الاستسقاء صلاة التوبة والأوبة عن المعاصي إلى الطاعات طلباً للمغفرة، وهي صلاة استغفار عمّا صدر من الناس من أخطاء أو معاصٍ حتّى حلّ عليهم الغضب من الله فمنع هطول المطر من السماء.

والتوبة الصحيحة تمحو الخطايا، فإن صلّى الناس هذه الصلاة الاستغفارية التي يتوسط فيها ﷺ بين قلوب المتّقين منهم وبين الله، ليقبل توبتهم وأوبتهم طبقاً لقوله تعالى وهو أصدق القائلين: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ..}**[١٦٧]

فمتى عاد العبد عن المعصية والخطأ، عاد الله عليه بالعطاء والإكرام الجسمي والقلبي. يتم في صلاة الاستسقاء الشفاء والعطاء للمؤمنين، ولغير المؤمنين إن تابوا، ففضل الله أكبر والله أكبر.

---

١٦٦ – سورة السجدة: الآية (٢١)

١٦٧ – سورة الأعراف: الآية (٦٩)

{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠).. يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً (١١).. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً}[١٦٨]

---

١٦٨ – سورة نوح: الآية (١٠–١٢)

أما الصلاة على الميت

هي بالحقيقة صلاة دعائية تنفع الميت حين ينتفع المصلون، إذ كان باباً لخيرهم ووجهتهم إلى الله، ففي التأثر بالموت، يزول مؤقتاً حب الدنيا، ويمكن التوجه إلى الله، وبذلك تتم الفائدة للمصلين، وتعود الفائدة عندها للمتوفى، فتتم الراحة والرحمة حقاً عليه.

* * *

كيفية الصلاة على الميت:

أربع تكبيرات:

- أن يقرأ الفاتحة بعد التكبيرة الأولى.
- الصلوات الإبراهيمية بعد التكبيرة الثانية.
- الدعاء للميت بعد التكبيرة الثالثة.
- وفي التكبيرة الرابعة يدعو المصلي: (اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنّا بعده واغفر لنا وله)...
- التسليم.

* * *

الحكمة من الجهر بالصلاة ليلاً والخفت بها نهاراً

رُبَّ سائل يقول:

ولكن ما الحكمة من الجهر بالصلاة ليلاً والخفت بها نهاراً؟!.

يقول الله تعالى: **{قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ..}**في النهار: {..**وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا**..}في الليل: {..**وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**}[١٦٩]موصلاً إلى الله.

إذ أن من قوانين النفس البشرية أنها ليلاً تأنس بصوتها وتسترسل وراء قولها، وذلك يظهر جلياً إن أصاب الإنسان شيء من الخوف ليلاً، فتراه يُطرب نفسه بسماع صوته، ولو لم يكن مطرباً أو جميلاً، أو أن يحدِّث نفسه بصوت مرتفع قوي ليشغلها عما حولها، أما في النهار وقد سطعت الشمس وظهرت الدنيا بزينتها، وانشغل المرء بما حوله من تجارة، زراعة، صناعة، باجتماع الناس، لذا ترى طبيعة النفس البشرية في هذه الحالة تميل إلى الهدوء وترغب فيه، وتأوي لذاتها هروباً مما يُشغلها...

إذن تتحقق الفائدة المرجوة والنفع القلبي من الصلاة بالجهر ليلاً والمخافتة بها نهاراً، وتمكنها من الوجهة لربِّها، وتلك من قوانين النفس التي وضعها لها تعالى، ولا تبديل لقوانين الله ذلك الدين القيِّم.

* * *

---

١٦٩ - سورة الإسراء: الآية (١١٠)

حالات قصر الصلاة

ورد في الأثر عن رسول الله ﷺ أن فرض الصلاة ركعتان زيدت في الحضر وأقرت في السفر. وذلك ما أشارت إليه الآيات الكريمة من سورة البقرة.

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩).. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...}. (١٧٠)

فالرسول ﷺ مأمور بالتوجه نحو الكعبة ونحن مأمورون بالتوجه نحوه والارتباط القلبي به ﷺ ، ولم يتكرر لفظ الآية مرتين:

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..}إلا إشارة إلى أصل الصلاة المفروضة وهي ركعتان، وهي الفرض الحتمي لحياة القلب، وما السنن والركع الأخرى في فروض الصلوات الخمس إلا مساعدات تثبيتية مفروضة حتى تتحقق هذه الفريضة تامةً كاملةً للحياة القلبية.

ففي حالات الخوف (كالسفر أو الحرب).. تجتمع النفس مع الفكر فتحقق هاتان الركعتان الفرض، إذ أن في حالات الأمن في الأحوال العادية تشرد النفس ولا تثبت لها وجهة...

لذا شرع تعالى قصر الصلاة عند الخوف في حال (السفر أو الحرب)..، أي حالات الخوف فقط.

{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً}(١٧١)

---

١٧٠ – سورة البقرة: الآية (١٤٩–١٥٠).

١٧١ – سورة النساء: الآية (١٠١)

{**حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨).. فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً..**}تنوي ملتفتاً موجهاً نفسك نحو إمامك إلى الكعبة، لترتبط برسول الله ﷺ ، ثم تتجه حيثما سرت، والصلاة بتلك الحالة ركعتان جامعتان للقلب على الله بميعة الإمام ﷺ النفسية.

{**..فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ**}[١٧٢]

إذن: الركوع، السجود، كل هذه الأعمال موجودة في القرآن، الله تعالى هو الذي شرع لنا كيفية الصلاة، كل ذلك من عند الله، إذن القصر في الصلاة لا يكون إلَّا إذا تحقق شرط الخوف، وتجوز الصلاة مشاة أو ركباناً، أما قصر الصلاة في الحرب: كما قصها علينا القرآن الكريم حين احتاط الرسول ﷺ وأخذ الحذر تجاه تربص المشركين بالمسلمين وكان على رأسهم خالد بن الوليد، قال المشركون ننقض على المسلمين أثناء الصلاة، لأن الصلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، فيستغرقوا فيها وينسوا وجودهم، فننقضُّ عليهم ولا نبقي لهم أثراً. حدث ذلك قبل صلح الحديبية، فجاءت الآيات تبين كيف صنع رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى:

{**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ..**}الآخرون يحرسونكم.

إذن: صلى الرسول ﷺ الركعتين الأوليتين مع نصف الجيش، كما ورد في القرآن الكريم، والنصف الثاني حمل السلاح بالأهبة القتالية القصوى. فلم يتمكن خالد بن الوليد من الانقضاض عليهم للحراسة الشديدة، وحينما تلا ﷺ التحيات في الركعتين الأوليتين ختم النصف الأول من الجيش صلاته بالتسليم، وأخذ سلاحه ومكانه من

---

١٧٢ - سورة البقرة: الآية (٢٣٨-٢٣٩)

النصف الآخر وتولى الحراسة المشددة، بينما اقتدى النصف الثاني بالركعتين الثانيتين[١٧٣] برسول الله ﷺ .

{..**وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ**..}الآخرون يحرسونكم: {..**فَإِذَا سَجَدُواْ**..}الذين معك {..**فَلْيَكُونُواْ**..}: الآخرون: {..**مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ**..}الأولون: {..**حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً**}[١٧٤]

إذن: القصر بالصلاة بركعتين في حال الخوف حصراً (كالحرب والسفر وغيرها).. وخشية تقلبات الطقس، أو قطاع الطرق أو غيرها، ويريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر.

* * *

١٧٣ – إذن رسول الله ﷺ لم يقصر الصلاة بل صلى أربع ركع، إذ أن الرسل لا يخافون، ولا يخشون أحداً إلا الله، والقرآن الكريم حافل بما يثبت هذه الحقيقة من قصص ونماذج عن شجاعة رسل الله عليهم الصلاة والسلام. انظر كتاب (البحوث المجيدة). للعلَّامة الإنساني محمَّد أمين شيخو بحث (فأشجع منهم لم تَرَ قط عين)..

١٧٤ – سورة النساء: الآية (١٠٢)

حكم صلاة المرأة في المسجد

وضح ذلك رسول الله ﷺ بياناً لا ريب فيه ولا اجتهاد و لا تأوُّل للنصوص.

إذ قالت أم حميد الأنصارية امرأة أبي حميد الساعدي بعد أن أسلمت وحسن إسلامها وأحبت رسول الله ﷺ حبّاً قدسيّاً بالله، وأحبت صحبته النفسية والصلاة معه بقولها: «**يا رسول الله إني أحب الصلاة معك.** "أي أنها تريد الصلاة معه في المسجد" فقال ﷺ : **قد علمت أنك تحبين الصلاة معي. وصلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك.. خير لك من صلاتك في مسجدي..**» [١٧٥]

فما كان من هذه المرأة الصادقة إلا أن أمرت فبُني لها مسجد في أقصى شيء في بيتها وأظلمه لتجمع نفسها بالكلية على الله بالصلاة، فكانت تصلي فيه حتى لقيت وجه الله عز وجل.

إذن صلاة المرأة في بيتها (غرفتها الخاصة لكمال سترها).. خير من صلاتها في صحن الدار، وعن النبي ﷺ قال: «**صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها**»[١٧٦]. والمخدع: هو البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير يحفظ فيه الأمتعة النفيسة، من الخدع وهو إخفاء الشيء الثمين، إذن كلما كانت السترة أكبر للمرأة، كانت الصلاة أفضل.

والمرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان (أي استقبلها وزينها في نظر الرجال ليغويها ويغوي بها، وليوقع أحدهما بالفتنة فالهلاك..).. وما ذلك الحرص الشديد على ستر المرأة، إلا وأداً للفتنة التي تُحدثها المرأة بخروجها من بيتها **(والفتنة لا**

---

١٧٥ – مسند الإمام أحمد.

١٧٦ – رواه أبو داوود عن عبد الله رضي الله عنه.

نرضى بها)..، «والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها» [١٧٧] كما قال ﷺ والذي يؤكده قول الله تعالى: {**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣).. وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً**}[١٧٨]

إذن أمر تعالى النساء أن يظللن في بيوتهن، يُقمن الصلاة ويؤتين الزكاة لأنفسهن، ويُطِعْن الله ورسوله، ويذكرن ما يتلى عليهم في بيوتهن (وليس في المسجد)..: من آيات الله والحكمة، ذلك شرع الله تعالى، فاستفت قلبك ولو أفتاك المفتون وأفتوك، كما قال الصادق الأمين ﷺ ، ونحن لا نسير إلا بكتاب الله وما سنَّه رسول الله ﷺ ، فللرجال مجال وللسناء مجال آخر في دين الإسلام، ولا نرضى بأن تكون المساجد متاحف يختلط الرجال فيها بأم الدنيا (المرأة).. فيتحول القلب عن الله وعن الصلاة الصحيحة وتخرب القلوب.

إذ الدنيا والآخرة كالضرَّتان لا تجتمعان، فإذا اجتمعتا فقد قضينا على الدين من أصله، ولن نقبل بقول البشر عن قول الله العظيم، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون، وهو الذي أنزل الكتاب مفصلاً وتبياناً لكل شيء.

أما حجابها في الصلاة

فلا تجوز صلاتها وشيء من جسمها مكشوف، ولابد حتى تصح وجهتها أن يكون وجهها ويداها مكشوفان.

---

١٧٧ – الجامع الصغير رقم /٥٩٧٥/.

١٧٨ – سورة الأحزاب: الآية (٣٣-٣٤)

ومن هنا ينبغي كما أمر رسول الله ﷺ أن تتباعد في غرفة داخل غرفة في البيت... ولم يقل ﷺ بكشف وجهها ويديها في الطريق، بل بالصلاة، والصلاة لا تكون بالأسواق كما أوَّلها الذين لا يعلمون.

وما دون ذلك فهو ما يريده الذين يتبعون الشهوات لكم ولنا أي: الهلاك، وأن تميلوا عن جادة الحق والصواب ميلاً عظيماً، فكشف الوجه حرام، لأنه يزيل بذلك الحجاب، والله تعالى يقول:

فخاطبوهن: {..**مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**..}[179] إذ الحجاب هو ما يحجب الرؤية تماماً.

أما عن لباس المرآة اللون الأبيض الساتر لجسمها وشعرها في الصلاة، فلكي تنحصر وجهتها إلى الله، فما يؤذي العين يؤذي النفس، فالمرأة بطبيعتها البشرية تختلف عن الرجل، فجمالها وشعرها وجسمها يفتنها ويحولها عن الصلاة، وهذا اللباس يذكرها بلباس الإحرام الذي هو تقليد للكفن عند الموت، فتطلق الدنيا وتخلع الفتن وتتوجه بصدق إلى بارئها.

* * *

---

١٧٩ - سورة الأحزاب: الآية (٥٣)

الفصل الثالث

هديّة بين يدي الله

وفي معرض الكلام عن الصلاة التي أتينا على ذكرها، يجرُّنا البحث إلى الكلام عن الزكاة، إذ كلما وردت آية في القرآن الكريم عن إقامة الصلاة تلتها آية عن إيتاء الزكاة، أي الطهارة. فما من شيء يقيم صلة العبد بخالقه بعد استقامته على أوامر الله مثل فعله المعروف وإحسانه إلى ذوي القربى والفاقة، وعطفه على ذوي الحاجة التي توصل النفس إلى الصلاة الحقيقية المؤدية للطهارة النفسية.

إذا كانت الزكاة عبارة عن تأدية مبلغ من المال يتصدق به الغني على الفقير المحتاج، فما سميت بهذا الاسم إلا لأنها سبب في إقبال العبد على خالقه، ووسيلة لطهارة نفسه وزكاتها الناتجة عن هذا القرب والإقبال على الله، إذ من قوانين النفس كما ألمحنا إلى ذلك من قبل، أنها لا تلتفت بوجهها تجاه أحد إلا إذا آنست من ذاتها إحساناً منها تجاهه، ومعروفاً تقرَّبت به إليه، فإذا ما تقربت نفس المؤمن بعملها هذا التقرب، وقدَّمت ما قدمت من إحسان، فهنالك تحدوها الثقة بإحسانها، وتسوقها الطمأنينة برضاء الله عنها، فتقبل بوجهها على الله بالصلاة، وبهذه الوجهة الصحيحة والإقبال، تطهر وتزكو وتتزكى، وتنال صفات الفضائل والكمالات، كما حصل للصحابة الكرام وأتباعهم بإحسان، وتتبدل بهذه الفضائل، فلا شُحَّ ولا جبن ولا جهل ولا كذب ولا مكر ولا خيانة، بل كرم لا يبارى، وشجاعة كبرى، وصفات محبوبة. وذلك هو السر في تسمية هذه العبادة وتلك التأدية المالية زكاة.

وهنا تجدنا مضطرين إلى بيان الفرق بين معنى الصدقة والزكاة، فنقول: للزكاة حد أدنى معيَّن. وقد وجد المشرِّع الحكيم عن الله تعالى وهو ﷺ خير من شرَّع لهذا الإنسان بلسان حضرة الله مبيناً قوانين هذا الخالق، وهو وحده الذي عرَّفه قربه

العالي من ربِّه، ففهَّمه تعالى بأصول تطبيق أوامره من كتابه القرآن، ومقاديرها اللازمة على الوجه الأمثل. أقول:

وجد هذا الرسول الكريم بما أراه الله بالقرآن الكريم، أن أقل ما يمكن أن يقدمه الغني من ماله حتى تحصل له الوجهة إلى خالقه هو ربع العشر، أي جزءاً من أربعين في أموال التجارة، فعلى التاجر في نهاية العام أن يرى ما لديه من بضائع وأموال، وأن يجري حساباً يوازن فيه بين ماله وما عليه، ثم يرى صافي حساباته، فيقطع أدنى حد للزكاة وهو كما ذكرنا عن الأربعين واحداً.

أما الزكاة في المزروعات البعلية فهي العشر، فعن العشرة أمداد مدّ واحد، لأنه تعالى بماء مطره سقاها وأرواها، فلم تكلف زارعها أثقال السقي، وهو المعطي المتفضل بالأمطار وغيرها.

وهكذا إذا آتاك الله تعالى في التجارة أربعين ديناراً فمعنى ذلك أنه تعالى وهبك تسعة وثلاثين، وجعل الواحد وهو تتمة الأربعين أمانة لديك، تعطيه للفقير الذي تَعْهَدُ فيه الحاجة، وإذا تفضل الله على أرضك بالمطر وآتاك الثمر، وغلَّت لك الأرض البعلية مئة مد قمحاً مثلاً، فمعنى ذلك أن الله تعالى إنما وهبك وتفضَّل عليك بتسعين مدّاً، وجعل العشرة تتمة المئة أمانة لديك، تمنحها الفقير والعاجز والمسكين، فإن كنت أهلاً لأداء هذه الأمانة، أدام الله فضله عليك، وولاك هذه الوظيفة، وجعلك وكيلاً على الفقراء تعطي كل ذي حق حقه، فصحَّ قول من قال: من فضله تعالى عليك أن خلق الفضل ونسبه إليك لتكسب. {**..وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ**}[180]

أما إذا أساء الغني التصرف، وأكل حق الفقير، وبذل المال في غير محلّه إسرافاً وتبذيراً، عزله الله تعالى عن تلك الولاية، وسلبه تلك النعمة: {**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ**

١٨٠ – سورة آل عمران: الآية (١٤٤)

مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ..}[181] **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ..}**[182]

وقد أشار القرآن الكريم إلى الزكاة في أموال التجارة والمزروعات فقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ**[183] **وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧).. الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}**[184]

فالله سبحانه هو الرزاق وهو وحده الملهم في التجارة، وهو الذي ينزل الغيث ويخرج به من كل الثمرات، وبحسب حالك وصدقك، وبحسب نواياك يعطيك ويتفضَّل عليك: {..**وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**}[185]ذلك كله

---

١٨١ – سورة الأنفال: الآية (٥٣)

١٨٢ – سورة يونس: الآية (٢٦)

١٨٣ – هذه الآية تنفي نفياً قاطعاً ذهاب بعض العلماء في منطقة سراقب إلى وجود مزروعات حديثة لا زكاة عليها (كالكمون...)،، فكل ما تخرجه الأرض من ثمرات، حبّاً وفاكهة وخضرة ودرنات (كالبطاطا والجزر...)،، وجبت عليه الزكاة فريضة، كما بيّنتها الآية الكريمة، وكذلك بعض علماء الدين في منطقة الغاب أصدروا فتوى أنه لا زكاة على الزيتون والرمان، فلما جئناهم بالآية الكريمة: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}الأنعام آية (١٤١).. تبين لهم خطأ فتواهم، وعادوا مشكورين للحق.

١٨٤ – سورة البقرة: الآية (٢٦٧–٢٦٨)

١٨٥ – سورة الشورى: الآية (٢٣)

يدركه المؤمن ويطبِّقه، فتراه يشكر الله تعالى على أن أعطاه وتفضَّل عليه، ويشكر الله تعالى ويذوب شكراً، حينما يعطي مستحقاً، فيرى الفضل كله من الله تعالى ومرجعه إليه. **{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.** [١٨٦]

لذلك أعطاك الله تعالى أيها المؤمن المال، أعطاك لتتقرب بعملك في الدنيا من جناب ربك العالي، وتُقبل بهذا العطاء عليه، وهنالك وبهذا القرب والإقبال على الله بالصلاة، يمسح ذلك النور الإلّهي ما في نفسك من علل وأمراض، فتصفو صفحة هذه النفس وتتزكّى وتتطهر، وتكسب نفسك الكمالات، ومن تزكّى فإنما يتزكّى لنفسه. قال تعالى مشيراً إلى الزكاة في النفس بقوله الكريم:

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[١٨٧]بعمله الحسن يحصل له اطمئنان، بعطائه ما يحب تتولد لديه ثقة فإقبال فطهارة، والنفس لا تطهر إلا بالله وبالإقبال عليه، ومن لا صلة له مع الله لا تطهر نفسه، فالصلاة للطهارة، متى غدت النفس كاملة تميل لأهل الكمال، وإن عرف أن الله راضٍ عنه بعمله، يقبل بمعية سيد الكمال رسوله الكريم ﷺ على الله بقلبه.

وقد أراه الله تعالى في القرآن الكريم ذلك المقدار الذي تحصل به هذه الطهارة النفسية وهذه التزكية، وهو كما بيناه من قبل ٢،٥% ربع العشر في أموال التجارة و ١٠% العشر في المزروعات البعلية و ٥% في المزروعات المروية، فبيّن ﷺ للخلق ما

---

١٨٦ – سورة التوبة: الآية (٩٩)

١٨٧ – سورة التوبة: الآية (١٠٣)

أراه الله تعالى إياه، وعرَّفهم بذلك الحد الأدنى الذي يأمرنا به عن لسان رب العالمين لقوله تعالى:

{..**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**..}[188] وهكذا فلا تظنن أن رسول الله ﷺ ، جاء بكلمة واحدة لم ترد في القرآن، بل إن كل ما جاء به منطوٍ في ذلك البحر الخضم اللامتناهي.

{..**قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ**..}، فأمره تعالى بإجابتهم: {..**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**}.

رغم مقامه العالي، هناك عدالة، فلو تكلم ﷺ بحديث من عنده غير كلام الله وحاشاه، لحبط عنه عمله، ولأصابه العذاب، فكل حديث مخالف للقرآن، فهو منسوب كذباً لرسول الله ﷺ ، ولا أصل له. ويأمره تعالى بإجابتهم: {**قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ**..}أنا سائر بأمره وبيده، تعرفون أنني ما كنت أعرف شيئاً منه: {..**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ**..}قبل الرسالة لم أتكلم بشيء، فمن أين جئتُ به؟. من علَّمني هذا؟. ما قلت لكم شيئاً خلال (٤٠).. سنة سابقة ثم جئت به، {..**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**}[189]أنا اجتهدت قبل الرسالة حتى صرت أهلاً للرسالة، فأوحي إلي، ولا أبلغكم سوى كلامه تعالى ففيه: {..**تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**}[190]

---

١٨٨ – سورة الحشر: الآية (٧).، انظر نسبة توزيع الزكاة في الصفحة (١٧٦). من هذا الكتاب.

١٨٩ – سورة يونس: الآية (١٥-١٦)

١٩٠ – سورة النحل: الآية (٨٩)

فكل شيء تتطلبه موجود في هذا القرآن، وكل ما جاء به رسول الله ﷺ فهو مأخوذ من كلام الله، والقرآن مشتمل ومنطوٍ على ذلك كله، كما تنطوي اللآلئ في البحر وكما تستقر فيه. وكلٌّ يرى بحسب ما لديه من إيمان، وبقدر ما هو عليه من استنارة، وقد رأى ﷺ أكبر ما يستطيع أن يدركه إنسان، فبيّن وعرَّف وفصَّل، وكل من حصلت له التقوى ودخل بمعية رسول الله على الله، استنار بذلك النور الإلٓهي ورأى طرفاً مما رآه رسول الله ﷺ ، وكلٌّ يرى بقدر استنارته وتقواه، وهو ﷺ السيد الأعظم الذي ما أدرك المؤمنون جميعاً مما أدركه ورآه، إلا كما يدرك المغترف من البحر بكفه من الماء، أو ما يعكسه كوكب من نور الشمس المتلألئة في السماء.

الصدقة والزكاة

ونعود الآن إلى بيان الفرق بين معنى الصدقة والزكاة، فنقول:

الزكاة: هي ذلك المبلغ المفروض الذي يجب أن يؤديه الغني للفقير، والذي إذا لم يؤدِّه الغني على التمام لا تحصل له الطهارة النفسية والزكاة، ولم يسلك سبيل المؤمنين.

أما الصدقة: فكل ما يدفعه المرء مما سوى الحد المفروض، وسواء أدّاه الغني أو الفقير سمي صدقة، لأنه عنوان على صدق صاحبه في التقرب إلى الله.

وربَّما تسألني في طلب معرفة النص الذي أورده الله تعالى في القرآن الكريم مبيناً فيه نسبة الزكاة من المال، تلك النسبة التي عبرنا عنها بربع العشر، وتقول من أين عرفنا أن مقدرا ما يجب أن يعطيه الغني للفقير هو جزء واحد من أربعين جزءاً من أموال التجارة، وقد تقول أنني قرأت القرآن كله فلم أرَ هذه النسبة ولم أعثر عليها، وجواباً على ذلك أقول:

كنَّا بيَّنا من قبل في بحث الصلاة حين تكلمنا عن الوضوء اشتمال آية الوضوء على ما سُمِّي بسنن الوضوء إلى جانب فروضه [١٩١]، كما بينا خلال كلامنا عن الصلوات الخمس ما أدركه ﷺ بفطنته الناشئة من إقباله العالي على ربه، عدد ركعات كل صلاة من هذه الصلوات، ثم تكلمنا عمّا أشار إليه القرآن الكريم من وجوب صلاة العيدين والحكمة منها، وما يجب فيها من تكبيرات، إلى غير ذلك من الأوامر الإلّهية والأحكام التي ما غادر القرآن الكريم منها صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها: {..**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ..**}[١٩٢] فكل ما بيَّنه الرسول الكريم ﷺ

---

١٩١ – لطفاً انظر كتاب درر الأحكام في شرح أركان الإسلام بحث الوضوء.

١٩٢ – سورة الأنعام: الآية (٣٨)

من الأوامر والأحكام، كل ذلك حتى نسبة الزكاة من المال منطوٍ في القرآن، موجود فيه.

وأورد لك الآن المواضع والنصوص التي تشير في القرآن الكريم إلى نسبة الزكاة فأقول: أوردِ الله تعالى في سورتي الأنفال والتوبة آيتين تتبيَّن من خلالهما النسبة المفروضة في الزكاة، والأوجه التي يجب أن تصرف فيها أموال الزكاة، أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: **{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ..}**[١٩٣] وهذه الآية تبين أن الغنيمة لا تعطى للمجاهدين، بل للمؤمنين المجاهدين الجنة فقط، ولا غنيمة ولا نسبةً منها لهم كما قال تعالى: **{إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً..}**[١٩٤] وبسورة الأنفال الآية الأولى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ..}**[١٩٥] صدق الله، وأخطأ البشر المؤرخون خِطْأً كبيراً في الدس، بأن للمقاتلين نِسباً، فهم باعوا أنفسهم بغية الجنة، والله اشترى منهم وقَبِل بيعهم، ولكن في الدولة الإسلامية ضمان اجتماعي لكافة أفراد المجتمع من بيت مال المسلمين بالكفاف، فلا حاجة للقتال من أجل سلب أموال البشر، بل الغاية فقط هدايتهم.

الغنائم لذي القربى: أي المستحقين والمعوزين ممن تعرفهم من الأقارب بالنَسب، أو ممن تعرف حاجتهم من معارفك، تُعلِم بهم الدولة لترتب لهم من أموال الخُمُس.

---

١٩٣ – سورة الأنفال: الآية (٤١)

١٩٤ – سورة التوبة: الآية (١١١).،

١٩٥ – سورة الأنفال: الآية (١)

واليتامى: أي الخمس الثاني لهم، لتكاثرهم أثناء الحروب والجهاد وكثرة المستشهدين في سبيل الله. والمساكين لهم الخمس، وكذا ابن السبيل ينفق عليهم الخمس من غنائم الجهاد، فلم يكن بدول المسلمين أصلاً فنادق بل مضافات للدولة، لثلاثة أيام لأبناء السبيل، والخمس الأول لله والرسول ينفقه ﷺ في وجوه منفعة المسلمين، وهو أساس بيت مال المسلمين أو خزينة الدولة الإسلامية، والذي يوزّع على الأوجه الثمانية المذكورين بالآية رقم /٦٠/ من سورة التوبة حين تضع الحرب أوزارها، يؤمَّن الخمس هذا بالاستمرارية والديمومة ببيت مال المسلمين بالزكاة، والأخماس الأربعة أنفقت بوجوهها.

ثم بيَّنت الآية الثانية التي في سورة التوبة الأصناف التي يوزع هذا الخمس عليهم لا على المقاتلين المجاهدين، فقال تعالى: {**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**}[١٩٦] ومن هذه الآية يتبين أن عدد الأصناف الذين تعطى لهم أموال الزكاة ثمانية. وبمقارنة الآيتين السابقتين والجمع بينهم نصل إلى النتيجة التالية:

لقد حدد تعالى في الآية الأولى لسورة الأنفال المذكورة أعلاه أن الخمس مما يغنمه الإنسان هو لله، وإذا نحن نظرنا لنصّ الآية بوجه عام وجدنا أنها تقيد ذلك بغنيمة الحرب، إذ جاءت الصيغة خاصة بالغنائم في مطلع الآية.

وإذا كان تقسيم الخمس في غنائم الحرب فلله والرسول أي لبيت مال المسلمين، فإنه يوزع على الثمانية أوجه المذكورة بسورة التوبة، ويؤمَّن للديمومة كما ذكرنا عن طريق الزكاة المفروضة على المؤمنين كما حددته آية الصدقات التي ذكرناها، وبتقسيم الخمس الذي هو لله والرسول أو بالأحرى لبيت مال المسلمين بعدُ إلى

---

١٩٦ – سورة التوبة: الآية (٦٠)

ثمانية أوجه، نحصل على النسبة المقررة في الزكاة، وهي واحد من أربعين، وإن شئت فقل اثنان ونصف في المئة.

أكرر

كل ٤٠ ل.س ينفق منها ١ ل.س (زكاة)..

كل ٤٠ ل.س ينفق منها ١ ل.س(زكاة)..

كل ٢٠ ل.س ينفق منها ٠,٥ ل.س (زكاة)..

المجموع كل ١٠٠ ل.س ينفق منها ٢,٥ ل.س (زكاة)..

على أن هذه النسبة أي أن الواحد من أربعين يعطى للدولة الإسلامية لبيت مال المسلمين إنما يوزّع ويصرف على المستحق، أي: من تحققت الدولة من عوزه وحاجته من الصنوف الثمانية المذكورة بسورة التوبة والمارّة الذكر، لأن كل هؤلاء تشملهم كلمة فقراء، وتجمعهم صفة الفقر والفاقة والحاجة والاستحقاق، فالكفاف لجميع المواطنين حق على الدولة، تصرفه بشكل رواتب ثابتة للأوجه الثمانية المذكورة.

وبشكل أوضح: خمس الغنائم يقسم على الوجوه الثمانية فتتبين نسبة الزكاة بصورة جليّة:

١٠٠ / ٥ تساوي ٢٠

٢٠ / ٨ تساوي ٢,٥% نسبة الزكاة

وأخيراً: حض الله تعالى على العمل، وبيّن أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأنه لا يكون دخول الجنة إلا بالعمل الصالح والإنفاق مما تحب النفس وتشتهي، فلا يعني الضمان الاجتماعي في المجتمع الإسلامي لكل فرد الوقوف عن العمل بل **«من أمسى كالّاً من عمل يده أمسى مغفوراً له»** [١٩٧] كما أُثِر عن النبي ﷺ ،

---

١٩٧ – رواه الطبراني.

باستثناء المقعدين عن العمل والعجزة والمرضى واليتامى وغيرهم، ممن لا يستطيعون السعي ومع ذلك بالكفاف المفروض لهم من بيت مال المسلمين، وفرضاً لفقراء أهل الكتاب الذين هم أقلية في ذمة المسلمين.

صوم قبل الصيام

هذا وبما أن عماد الصوم وروحه في الصلاة، والصلاة بالتراويح وبفاتحة أم الكتاب أي السبع المثاني، كما أن غاية الصيام التقوى بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**، وحصول التقوى بصلاة التراويح، فالفاتحة والصلاة والصيام كلٌّ لا يتجزأ، لذا نقول وبالله المستعان:

ليس المراد من الصيام هنا الصوم عن المعاصي والمحرمات، لأن الصوم عن المعاصي والمحرمات شرط أساسي لهذا الصيام الذي سنتكلم عنه الآن، وليس بمستطيع كما كنا بيَّنا سابقاً أن ينتسب للجامعة من لم يهيئ نفسه من قبل في المدارس الإعدادية والثانوية.

وبناء على ما نقول: لا يستطيع المرء أن يصوم رمضان صياماً حقيقياً، ولا يستطيع أن يصل إلى الثمرة المطلوبة منه، من لم يكن صائماً من قبل عن المعاصي والمنكرات، وكل صيام لا يستقيم صاحبه على أوامر الله، فما هو بمستفيد منه إلَّا القليل، وفي الحديث الشريف: «**كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش**»[١٩٨]. وسببه ضعف الإيمان، والصيام مفروض على المؤمنين ليستنيروا.

أما وقد عرفنا أن الصوم عن المعاصي والمحرمات شرط أساسي للمؤمن في صيام رمضان، فما المراد وما الغاية إذن من صيام رمضان عن الطعام والشراب كما قال تعالى: {**..أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ..**}[١٩٩]وماذا يعمل الصائم في رمضان حتى يصل إلى تلك الغاية؟.

---

١٩٨ – أخرجه النسائي وابن ماجه.

١٩٩ – سورة البقرة: الآية (١٨٧).؟.

أقول: الغاية من الصيام والوصول إلى ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[٢٠٠]

التقوى

ومن هذه الآية الكريمة يتبيّن لنا أن الغاية من الصيام هي الوصول إلى التقوى، فما هي التقوى يا ترى؟.

هذا، ولأن التقوى أساس السبع المثاني وقوامها وجوهرها، أتينا الآن على ذكرها. أقول: كنا بيَّنا في مطلع سورة البقرة [٢٠١] معنى التقوى والطريق الموصلة إليها، وزيادة في الإيضاح، وليتبيّن لك معنى هذه الكلمة بصورة جلية، نضرب المثل الآتي فنقول: هب أن رجلاً يسير ليلاً في غابة واسعة الأرجاء كثيفة الأشجار، كثيرة المخاوف والأخطار، وكان بيد هذا الرجل مصباح منير يضيء له ظُلمَ الطريق، فما دام بيده هذا المصباح فهو محفوظ من الضلال، وهو في نجوة من سائر الأخطار، فإذا ما رأى في طريقه صخرة من الصخور، كشفها له ذلك النور فحاد عنها ولم يتعثّر بها، وإذا ما اعترضت سيره حفرةٌ أو بئرٌ سحيقة، فسرعان ما يراها ويتقيها ولا يتردى فيها، وإذا ما رأى أفعواناً مؤذياً أو وحشاً ضارياً تخلّص من شرّه واتقاه، وكان هذا المصباح الكاشف والنور المضيء، سبباً في اتقائه كل ما يتعرّض له من حوادث مؤذيات وأخطار، وذلك هو مثال يعرّفنا بالمراد من كلمة التقوى: التي هي الاستنارة القلبية بنور الله ورسوله ﷺ .

---

٢٠٠ – سورة البقرة: الآية (١٨٣)

٢٠١ – لطفاً انظر كتاب تأويل الأمين (ص٥٨). وما بعدها.

وما الغابة إلا هذه الحياة الدنيا، وما المخاوف والمخاطر والآبار إلا الجرائم والمعاصي، وسائر ما حذرنا الله تعالى منه من منهيات ناتجة عن الشهوات المحرَّمة، وما النور الذي تحصل به التقوى، إلا ذلك النور الإلَهي يستمده المؤمن من خالقه بواسطة رسوله ﷺ ، فيكشف له ظُلَمَ الحياة، ويريه ما في المنهيات من شرور وموبقات.

ففي شهر الصوم، حيث تنقطع النفس عن الدنيا ومشاغلها، وتنقطع عنها الوساوس الشيطانية لانشغالها بجوعها، تكون قد تهيأت لأن تزداد في الكمال الإلَهي شهوداً ومعرفة، كلما تلت الفاتحة في صلاتها، وتسمو في محبة الله آناً بعد آن، ويُصبح لها وثيق الارتباط بنور خالقها، متصلة به تعالى، وتكون لها ليلة القدر لقدر مرشدها ودليلها ﷺ ، وعظيم مقامه العظيم، عروة وثقى لا انفصام لها، وسفينة عظمى لا غرق في أوحال الدنيا بعدها، وضياءً منيراً لا ظلمة بعده، فترى ما ترى من أسماء الله الحسنى، من عظمةٍ وجلالٍ وأنوار وبهاءٍ وجمال... فتذوب النفس المشاهدة تقديراً وحباً وشغفاً بالله وأنواره. وكفى به نوراً يُمشى به بهذه الحياة وكفليْن من رحمة الله قد أُوتي في دنياه وآخرته، على نور وهدى واستقامة لرؤيته الغَرور، الفتانة ظاهراً، لقد فاز التقي بالداريْن.

* * *

صلاة التراويح

تعريفها:

هي عشرون ركعة، تصلّى ركعتين ركعتين، بعد صلاة العشاء وسنَّتها وقبل الوتر، وتكون تأديتها في شهر رمضان المبارك، وتصلّى جماعة، وجهراً.

والتراويح بمشاهداتها القلبية:

تتمَّ بالاستقامة على أمر الله، وعدم تهاون الإنسان في البرّ والإنفاق على قدر الاستطاعة، فالصائم وقد مرنت نفسه طوال نهارها على القطيعة بينها وبين الشيطان لانشغال ساحتها بالجوع والعطش، كما أن له من صيامه عن الطعام والشراب عونٌ على الثقة من أنّه أرضى الله، فيكون ذلك له سبباً عظيماً وحافزاً قوياً على الإقبال على ربّه، فإذا وقف عشاءً للصلاة بعد أن تناول يسيراً من الطعام والشراب، وقد ازدانت نفسه بالاستقامة على أمر الله وعدم تهاونه في حدوده، وقدّم من الصالحات ما استطاع، ولم يتلبّس بثوبٍ من أثواب المعصية، بل إنّ نفسه كلّها ثقة أنّها أرضت الله بصيامها وأفعالها، وما إن يدخل في الصلاة لا يلبث أن يرى نفسه مغمورةً بفيض من نور الله، شاخصاً ببصيرته إلى الله، وهكذا، يزدان بليالي رمضان بصفات الكمال الإلّهي المطبوعة في نفس الإمام ﷺ ، ويرتشف من هذا الكنز ما يرتشف، ثمّ يجد أنّ هذه المشاهدات والأذواق والبوارق والأحوال من معينها الحقيقي، فيرى أنّ هذا العطاء كان من الله على رسوله ﷺ فعليه. أي يرى بقلبه (ببصيرته).. الأنوار متنزلة على رسول الله ﷺ ، والمعاني العالية بكلام الله، وأنّ رسول الله ﷺ وحيٌ يوحى، ومن هنا يتجلّى لنا معنى (التراويح).. اللفظي، أي: رؤية الوحي.

أي إن كنت تقيّاً ترى الوحي المتنزل على رسول الله ﷺ ، فعلى الخلائق أجمعين، إذ هو رحمة للعالمين أرسله الله.

صلاة التسابيح

تعريفها:

هي أربع ركعات، تصلّى ركعتين ركعتين مثل باقي الصلوات، يقرأ المصلّي في كلّ ركعة كما يقرأ في الصلوات العادية، الفاتحة وبعض آي الذكر الحكيم، فإن فرغ المُصَلّي من القراءة في الركعة الأولى قال وهو قائم وقبل أن يركع: (سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر...).. يقولها خمس عشرة مرّة، ثم يركع فيقول: (سبحان ربّي العظيم).. ثلاثاً، وبعدها يقول: (سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر...).. عشر مرّات، ثمّ يرفع رأسه من الركوع إلى الاعتدال ويقول: (سمع الله لمن حمده)..، ثم يقول: (سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر...).. خمس عشرة مرّة، ثم يسجد وبعد تسبيحه: (سبحان ربّي الأعلى).. يقولها عشر مرّات، ثم يعتدل من السجود فيقولها خمس عشرة، ثمّ يسجد فيقولها عشرة.

ويكون مجموع هذه التسبيحات في الركعة الواحدة خمساً وسبعين تسبيحة، ويفعل ذلك في كل ركعة من الركعات الأربع، ويكون مجموع التسبيحات في الأربع ركعات ثلاثمائة تسبيحة.

وقد حثَّ الرسول ﷺ على أدائها للمتفرّغ الراغب في كل يوم، لمن يطيق ذلك، فإن لم يستطع ففي كل جمعة مرّة، فإن لم يفعل، ففي كل شهر مرّة، فإن لم يفعل ففي كل سنّة مرّة، فإن لم يفعل ففي العمر مرّة. فإن أدّاها كل سنة مرّة فخير وقتٍ لها هو ليلة آخر يوم صوم من شهر رمضان، ليلة عيد الفطر.

إذ أنّ الإنسان إن تابع على طاعة الله والاستقامة على أمره، وعلى ديمومة الجهاد لرضاء الله طيلة شهر رمضان، وقام إلى صلاة التسابيح في آخر يوم، قام ونفسه واثقة من طاعتها لله، وقد جدّت واجتهدت، ففي هذه الصلاة (صلاة التسابيح).. يصبح المصلّي ذا وجهٍ أبيضَ تجاه ربّه، فتعرج نفسه في ملكوت الله وملكه، وتسوح

نفسه مع السائحين من أهل الله، فتشاهد سيّالات نورانيّةً متنزلة من الفضل الإلّهي، ويشاهد بعين البصيرة حنان الله على مخلوقاته وعطفه وبرّه وإكرامه وإحسانه وتسييره الخيّر الذي يحمد سبحانه دوماً عليه، وكلّما تلا المؤمن الكلمات (سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر...).. ازداد رقيّاً وسمواً، إذ ما هذا التعبير اللفظي إلا تعبيرٌ عن سبحٍ نفسيٍّ شهوديٍّ في عظمة الله سبحانه وتعالى، تلك العظمة التي لا تتناهى، وفي ذلك الجمال والكمال الإلّهي الذي لا يضاهى.

فإن قال المؤمن التقي: (سبحان الله)..، فهو يعبِّر عن سبح نفسي مقرون بشهود للتسيير الإلّهي لسائر الكائنات في هذا الكون، ويرى أنّ هذا الكون بجميع ما فيه من عوالم، سائر كلّه بإذن هذا الربّ العظيم، فلا نهاية والحالة هذه لجلال الله ولا حدّ ولا انتهاء، وفي قوله (الحمد لله).. إقرارٌ من نفسه المستنيرة أنّ هذا التسيير الإلّهي لجميع ما في الكون كلّه مبنيٌّ على الرحمة والفضل الإلّهي، لذا يحمده سبحانه وتعالى عليه، ويرى أنّه لا يصدر عن هذه الذات الإلّهية الرحيمة إلا كلُّ خيرٍ وإحسان، وقد شملت بذلك كل ما هو كائن وما سيكون وما قد كان.

ويقول (لا إلّه إلا الله).. وهو يشهد أنّه سبحانه هو وحده المسيّر لشؤون كافّة المخلوقات، على الرغم من أنّها تتطلّب تسييراً دقيقاً، وعلماً شاملاً وقدرة لا متناهية وحكمة بالغة: فهو سبحانه الواسع الحكيم، والإلّه القدير، والعزيز الرحيم، وهكذا يسمو ويتسامى فيتلو (الله أكبر).. ذاكراً اسم الذات العليّة الأعظم الجامع للأسماء الحسنى كلّها، فمهما شهد من فضله ففضله أكبر، ومهما شهد من إنعامه وكرمه ففضله وإنعامه أعظم، ومهما رأى من تسييره الخيّر للكائنات فالله أكبر وأكبر، لا حدّ له ولا انتهاء.

هذه بعضٌ من المعاني والأذواق التي تتذوَّقها نفس هذا المؤمن خلال سياحتها وسبحها النفسي الشهودي في صلاة التسابيح، والتي تشير إليها كلمة التسابيح لفظاً.

والحمد لله ربّ العالمين

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

الحياة الطيبة من الله تعالى، دنيا وآخرة، بمعناها المحض، لا تتم بياناً وأحوالاً إلا بواسطة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم خليفة الله في أرضه، بدائمية وظيفته، التي يقوم بإدخال المؤمنين بالصلاة وبالفاتحة على حضرة الله، خالق الجمال والفضيلة والكمال، منذ غور الأزل السحيق إلى أعماق الأبد السرمدي مجداً وسمواً.

فمن شاء العلم، فبها العلم والفتوح والكشوف والعلو العظيم، مكتسبات النفس المقبلة مع الإمام على الله، أي التي اتّقت الله فانطبعت بها حقائق أسمائه تعالى الحسنى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} سورة البقرة 138.

هذه هي الوسطية الحقّة بين الله وخلقه، التي توسّط بها علامتنا الجليل محمّد أمين شيخو قدّس سرّه بما بينه من أسرار عظيمة انطوت تحت عبارة السبع المثاني مفتاح فهم كلام الله. إن شئت إدراك إعجازها العلمي بعد إعجازها البياني، فاسلك طريق الإيمان بصدق وإخلاص، واطلب من الله بطريق الإيمان، يبعث الله لك فوراً سراجه المنير ، وليس البيان كالعيان، والحمد لله في بدء وفي ختم

الناشر